تقاطع

مجموعة قصصية

د/وفاء الحكيم

ماستر

تقاطع

مجموعة قصصية

د/ وفاء الحكيم

الجمع والإخراج
التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/ ٢٠١٩/٥٢٤١م

ISBN: 978-977-85459-3-7

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

ماســـتر ©
٢٠١٩م

Email: master.publisher@hotmail.com
Facebook: facebook.com/Master.PH
Smashwords: smashwords.com/master.ph
Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

الإهـــداء

نُجُومٌ كثيرةٌ عَلَى مَرْأَى وَمَسْمَعٍ مِنْ سَمَاْئِي فَكَيْفَ أَمُدُّ يَدِيَ
لِأَلْتَقِطَهَا مِنْ فَوْضَى الاشْتَبَاْكِ وَجَحِيمِ التَّقَاطُعِ ...؟
لَاْ دُخَانَ فِي الْأَجْوَاْءِ ، كَيْفَ أُفَسِّرُ احْتِرَاقِيَ ..
أَنَّكَ هُدُوْءُ قَلْبِي وَصَخَبُهُ فِي آنٍ مَعَاً...
(كافكا...)

تَقَاطُــعٌ

خرجتُ من المقهى لاهثاً ،عدوتُ الطريقَ مسرعاً . عندَ التقاطعِ وقفتُ ألتقطُ الأنفاسَ، مشيتُ صَوْبَ محطَّةِ» الميكروباص» وقبل أنْ أصعدَ تحسَّستُ جيوبي فوجدتُها فارغةً- فأدركتُ أنَّ أحدَهُمْ قد سرقني !! استطاعَ- بمنتهى الذكاءِ- أنْ يُغافلَني ويسرقَ منّي حافظةَ النقودِ ،البطاقةَ الشخصيةَ وكارنيه العضوية . كلُّ ذلكَ نظيرَ أنَّني وَلَجْتُ المقهى لأشربَ «كوب شاي» و«حجرين دخان». رجعتُ إلى المقهى للبحث عمَّا ضاعَ منّي، رحتُ أسألُ الجميعَ فأجابتني «الثعابينُ» و«الذئابُ» و«الذباباتُ البليدةُ»الملتصقة بالزجاج بأنَّهم لم يَرَوْا شيئاً ساقطاً على الأرضِ، ولم يسبقْ أنِ امتَدَتْ أيديهِمْ لشيءٍ غابَ عنه صاحبُهُ . أصررْتُ على البحثِ عمَّا فقدتُه ، بينما كانوا يصرُّونَ على ادعائِهِمُ البراءةَ و تجاهُلِهِمْ لِمَا أبحثُ عنْهُ. عندما ازدادتْ الصَّيْحَاتُ وعلَتْ كلماتُ السِّباب استطعتُ بصعوبةٍ أنْ انفلتَ من قبضتِهِمْ ،فرحتُ أعدو مسرعاً ومِن ورائي كانتْ الثعابينُ والذئابُ والذباباتُ البليدةُ تصرخُ بصوتِها العالي : أَمْسِكُوه- لص حقير- إيّاكم أن تدعوه يفلت ..؟؟! رحت أتحسس البطاقاتِ كلِّها فلمْ أجدْ فيها بطاقتي وحافظاتِ النقودِ كلِّها لم أجدْ فيها نقودي .انتابني الحزنُ فألقيتُها بأكملِها في عُرْضِ الطريقِ ولمْ أَحْفِلْ كثيراً» لكارنيهات العضوية» التي راحت تسقطُ – هي الأُخرى- مع كلِّ خُطْوَةٍ أخطوها. تعبتُ كثيراً حين أدركتُ أنه لا فائدةَ من الوصول إلى هُويَّتي، ونقودي فأسلمتُ نفسي» للريحِ والترابِ والتَّعَبِ» بينما صوتُهُمْ من ورائي يَخْفُتُ تدريجياً و يبعدُ كثيراً، حتَّى تلاشى عن مدارِكِ السَّمَعِ .

انْتِحَارٌ

قَرَرْتُ أنا و»عَلِيٌّ» – الذي كان يتلصَّصُ عَلَى جَسَدِي مِن خَلْفِ خَصَاصِ نافذتِهِ ، بَيْنَمَا كُنْتُ أُرْسِلُ إليهِ بإشارات مُوافَقَتِي عَلَى لِقَائِهِ بعد ظهيرةِ يومٍ قَائِظٍ - وفي ذاتِ اللَّحْظَةِ - أَصْرُخُ فِي أُمِّي بأنَّني سأعودُ إليها حَالَمَا أنتهي مِن سِقَايَةِ الزَّرْعِ في نافذَتِنَا – قَرَرْنَا سَوِيَاً–الانتحار...!!!

كُنَّا قَدْ ضِقْنَا ذَرْعَاً بالكادر» الضَّيْقِ» الَّذِي تَغَيَّرَتْ أَلْوَانُهُ مِنَ الْأَبْيَضِ ،والْأَسْوَدِ إلى الألوانِ كُلِّهَا دون أَنْ يكونَ لذلكَ - تأثيرٌ-علي بهجةِ الألوانِ لَدَيْنَا....!!! وكَمَا أَنَّ « الزُّووم إن» لَمْ يُنْجِنَا مِنْ ضِيقِ التَّحَدِّي ، ولَم يَخْرُجْ بنا»الزُّووم أَوِتْ» لِحَيِّزِ الْهَواء النَّقِيِّ... !!! فانْتَحَرْنَا ....!

كانَ ذلكَ صبيحةَ يومِ الاثنينِ حيثُ الكُلُّ مشغولونَ بزحمةِ السُّوْقِ، وَشِرَاءِ الجُبْنِ «القريش» من القرويات الماكرات الجالسات على الرَّصِيفِ ، والذُّرَةِ «للدَّجَاجَاتِ والدِّيكِ» الَّتي سَيَذبَحُونها في العيدِ ،وسيصنعونَ منها مَرَقَةً يعطونَ منَها للجَارَاتِ «الطيِّبَاتِ» «الفقيرات» . وبَحَثَتْ الشرطةُ فوجدَتْ ثلاث جُثَثٍ...؟؟ واحدةً لي بعد أنْ اتَّهموا «عَلِيَّ» بأنَّه اعتدى عَلَيَّ، وأنَّني كنتُ حاملاً مِنْهُ . وجثَّة» لعَلِيّ» بعد أنْ اتَّهموني بأنَّني تحولتُ لواحدةٍ من مصاصي الدِّمَاءِ، وأنَّني ظَلِلْتُ أَمَصُّ دماءَه بشهوةٍ حتَّى- استنزفتُ كلَّ الدِّمَاءِ الَّتي كانتْ لديهِ -وتركتُهُ جُثَّةً لا طائلَ مِنْهَا، بينما تركتُ أحدَ أنيابي – مُنْغَرِسَاً في لحم كتفِهِ- دليلاً قاطِعَاً على فَعلتي ..! . أمَّا الجثةُ الثالثةُ فكانتْ لطفلٍ- مُتَّسِخٍ ،مُجْهَدٍ، مُتَجَوِلٍ في كلِّ الشَّوارعِ، وجالسٍ على كلِّ الأرصفةِ - اشترى لِي «عَلِيٌّ» منه ذاتَ مرةٍ عُقْدَاً من الفُلِّ –وألبسني إياه - حاول أنْ يسبحَ ليصلَ إلى الناحيةِ الأُخرَى فابتلعتْهُ الدواماتُ، ورماهُ اليَمُّ بعيداً.. !! وجمعونا «أنا» و»علىَّ» و»الطفلَ» وشرَّحُوا جثَّتَنَا، وكتبوا تقاريرَ الوفاةِ» ثم أمروا بدفنِنا في مدافنِ الصَّدَقَاتِ . فلَمْ يأتِ أحدٌ من أقاربنا ،ولا أصدقائنا، ولا معارفِنا لاستلامِ جثتَيْنَا أنا و»على !!؟؟ حتى الطفلُ لم يأتِ «مدرسُ اللُّغةِ العربيةِ» – الَّذي لم ينجحْ في أَنْ يُبْقِيَهُ داخلَ أَرْوِقَةِ الأمنياتِ ليعلِّمَهُ أسماءَ الوردِ، ورائحتَها، وشكلَ بذورِها ومعنى غرقِ الوردِ، وتلاشي الرائحةِ وكيف تطفو الزمورُ متحديةً ، لتسبحَ ضدَّ التيارِ– فتركَهُ الطفلُ يوماً وأطلقَ ساقيه لِعَبَثِ المسافاتِ... لم يأتِ «المدرسُ» لاستلام الجثةِ الَّتي بقيَتْ لأيامٍ منتفخةً، وممتلئةً بالرِّمالِ،

والحشائشِ . ولم يكنْ هذا ذنبُ «المدرسِ وحدَهُ « فقد كان مقبوضاً عليه مع كلِّ مَن تَمَّ القبضُ عليهم من «مدرسي اللغةِ العربيةِ» بتهمةِ سرقةِ الهَمَزْتِ، والتحرُّشِ بالفواصلِ ، واختلاسِ علاماتِ الاستفهامِ ، وتكديرِ الصَّمْتِ العام ..

خُـفُـوتٌ

خَفَتَ العشقُ المتأرجِحُ بيننا ، وانزوتْ الفراشاتُ ، والزُّهُورُ، والأغاني وتَمَدَّدْنَ متثائباتٍ ثُمَّ غطَّيْنَ أنفسَهُنَّ بغطاءٍ ثقيلٍ حَجَبَ الضَّوْءَ عن عَيْنَيْ حبيبي ، وحال بيننا وبين الشغفِ ليعودَ إلينا متهادياً كعادتِهِ في كلِّ مرَّةٍ نفترقُ فيها . نامتْ الفراشاتُ كلُّهنَّ إلا فراشةً واحدةً اجتاحها الجموحُ ، وراوغها الغموضُ فظلَّتْ تطوفُ بين الرُّبُوعِ كلِّها ، وتَسْتَوْطِنُ الأصقاعَ جميعَها ، وراحتْ تتراقص في الحقول ، وعلى أسطحِ الجبالِ ثم تعودُ وقد جَمَعَتْ المدى ألواناً على جناحيها وأومأتْ- لي ولحبيبي – هامسةً.. : هناكَ احتمالاتٌ كثيرةٌ للفراق ، هناك الندمُ ، وهناك العذابُ ، والرجوعُ والبكاءُ وهناك أيضاً النسيانُ، و الانتقامُ، والصَّمْتُ . اختار حبيبي الصَّمتَ، واخترتُ البُكاءَ...! صَمَتَ حبيبي وولجَ أنفاقَ الصَّمْتِ المتشعبةِ والغارقةِ بملايينِ اللُّغاتِ الحيةِ بعدما ضاق ذَرْعَاً بفوضى التيهِ، وبعطشِ اللِّهاثِ على عتباتِ الوَطَنِ الصاخبِ باللاجدوى ...! وبكيتُ أنا – بكيتُ بحنينٍ وهدوءٍ – لَم أكنْ أبكي حُرْقةً ولا لوعةً ولا اشتياقاً بل بكيتُ طمأنينةً للفراقِ . وتَلَصَّصَتْ الفراشةُ علينا وعَرَفَتْ عنَّا... فنقلتْ الفراشةُ حالي إليهِ، وحالَهُ إليَّ... فرجَعْنَا - أكثرَ وجداً ولهفةً - إلى بعضِنَا – نستنطقُ الأغاني ، ونزرع الزمورَ، ونلملمُ الفراشاتِ.... زرعنا أنواعاً شَتَّى من الزُّهورِ، وكتبنَا أغاني غيرَ الَّتي كانتْ تُغَنَّى منْ قبْل . ولَمْلَمْنَا فراشاتٍ أخْرى كانتْ تطوفُ في المداراتِ البعيدةِ ، لَكِنَّنَا حينَ العودةِ وجدنَا الاحتمالاتِ أكثرَ ازدحاماً وعُهْرَاً ، والضَّوْءَ أكثرَ خُفُوتاً وعتمةً ، والفراشاتِ وقد احترقْنَ كُلُّهُنَّ وصِرْنَ رَمَادَاً تذرُوه الدُّمُوعُ . ...!! فافترقنَا – صامِتَيْنِ باكيَيْنِ على غيرِ هُدَىً ولا عودةٍ – ولم تَعُدْ بنا قوةٌ نعاندُ بها احتمالاتِ الانتقام بركلةِ حذاءٍ لقلبِ الوطنِ، ولا بإشعالِ النَّارِ في جَسَدِ النَّدمِ ...!

زُجَاج

نجحتُ أخيراً في الوصول . تتبعت بدقةٍ ما كان مكتوباً في ورقةٍ صغيرةٍ مندسةٍ في جيبي عن الطُّرُقِ المؤديةِ للمكان واستمعتُ جيداً لنصائح الآخرين حين عدَّدُوا مزايا الوصول لأدواره العليا . وصلتُ إلى المبنى الزجاجيّ الأزرقِ فهالني كَمُّ الإبهار ،الأناقةُ والفخامةُ اللتان تجتاحان تفاصيله وتزيّنان أركانَهُ . كانت واجهةُ المبني زجاجيةً ، نوافذُ الأدوار زجاجيةً ، صالة الاستقبال ، حتى السلالم تبدو لي وكأنها زجاجيةٌ . صعدتُ درجتين ثم ولجتُ صالة الاستقبال سائلاً الموظف الجالس بهدوءٍ خلف الحاجزِ الزجاجيّ فأومأ لي بيده ناحيةَ اليسار لأستقلَّ المصعدَ فأصلَ إلى بُغيتي في الطَّابَقِ قبل الأخير. لحظات قليلة ظهر بعدها رجلٌ وامرأةٌ وهما يبدآن شجاراً ، كان صوتهما يعلو تدريجياً وهما يتبادلان أقذعَ الشتائم . المرأة تتهم الرجلَ بالنَّذالة ، بينما الرجلُ يعاودُ اتهامَهَا بالخيانةِ . كان المتجولونَ في المكانِ ، والجالسون على المقاعدِ الوثيرةِ في ردهة الاستقبال ينظرون بهدوءٍ لا مُبالين . ثم ازداد انتباهُهم شيئاً فشيئاً عندما ازْدادتِ الأمورُ سوءاً بين الرجل والمرأة ، اِقْترب الناسُ فاقتربتُ مثلما اقتربوا، لكنَّهم حين حاولوا التدخل لِتهدئتِهِمَا رَنَوْتُ مبتسماً ، متباعداً ، ولا مبالياً . ازدادتْ حميةُ الشِّجَار ، فازدادتْ رغبةُ المتجمهرين في تهدئتِهِمَا !! كنتُ قد اقتربتُ أكثرثم مرقتُ كالسهم بين الزحام ، وقد حالفني الحظُّ حين وجدتُ لي مكاناً فارغاً على شكلِ شريطٍ طويلٍ ورفيعٍ ومتعرجٍ من الفراغ فعَدَوْتُ إليه مسرعاً لاهثاً . جعلتُ ظهري ملتصقاً للحائطِ ويَدَيَّ ممدودتَيْنِ ، تحولان بين صدري ودوائرِ العنفِ الصاخبةِ وكنتُ أدفع الزحامَ بعيداً عني بقبضة يدي أوركلةٍ من قدمي إذا اقتضى الأمرُ. مسافةً قصيرةً مشيتُها وصلتُ بعدها لبابِ المِصْعَدِ العالقِ في الطَّوابقِ العُليا فضغطْتُ على مفتاح الاستدعاء للأسفلِ بينما كان الشجارُ قد اسْتَعَرَ، وازداد تكاثفُ البشر حول الرَّجُلِ والمرأةِ . ما إنْ وصلَ المصعدُ وانفتحَ بابُهُ حتى كان تشابك الأيدي قد بلغَ أشدَّهُ وكان قميصُ الرَّجُلِ قد تمزَّقَ في مواضعَ مختلفةٍ وبدا شبهَ عارٍ بينما أثرُ أصابع الرَّجُلِ على خَدِّ المرأةِ - إثْرَ عِدَّةِ صفعاتٍ على وجهِهَا - بدا أكثر احمراراً.. !

ولجتُ المصعدَ ، ضغطتُ مسرعاً على الأزرارِ المضيئةِ التي تشيرُ للطَّابق قبل الأخير غيرِ معطٍ الفرصةَ لأحدٍ ليصعدَ معي وبينما كان طرفَا البابِ يقتربانِ من بعضهما

كانت الدماءُ قد انبثقت بعنفٍ ، وسالت على الأرضية في مواجهتي ..!
غطَّتْ الدماءُ مساحةً لا بأسَ بها من البلاطات الزجاجيَّة بينما علا صوتُ المتواجدينَ ملتاعينَ ، مستنجدينَ، مهرولينَ ، فزعينَ ، وصارخينَ . ازداد اقترابُ ضلفتي الباب ،وانضمتا إلى بعضهما حتى التحمتا بقوةٍ لا تنفصمُ . كنتُ غارقاً في الظَّلام والمِصعدُ يقلُّني للأعلى طابقاً تلو طابقٍ بينما أحاولُ جاهداً السيطرة على الابتسامة التي تعلو وجهي متحولة لضحكاتٍ عاليةٍ وأنا أتنهدُ مستعرضاً سُوءَ التفاهم الذي وقع بين الرَّجُلِ والمرأة والذي كان سببه خطاباً من مجهولٍ أرسله أحدُهم إلى «المرأة» يوضح فيه بالأدلة حقيقةَ ما فعله «الرَّجُلُ»معها فكان سبباً في تهشمِ بيت «الزُّجَاجِ» الذي كانت تقبع فيه هادئةً مطمئنةً لا ترى عبر نوافذِهِ المغبشة غير غفلتها .

طريق

«أيها النساجون :أريد كفناً واسعاً لأحلامي»
« محمد الماغوط»

لم تبالِ بما تدثرت به الطرق حولها من نارٍ، بارودٍ ورَصَاصٍ . كانت تودُّ لو تُمْسِكُ بلحظتِهَا تصعدُ بها أجنحةُ الريح لتعبرَ بها صوب الفضاءاتِ المحرقَة لشهوةِ الجُموح . مَسَّت بفرشاتِها حُرقةَ اللَّون / وما تفحَّمَ من رؤى الأوَّلِين ثم هاتفتْ حبيبَها قائلةً : سأعبرُ الطريقَ الطويلة بعدما جهّزتُ راحلتي للسفر البعيد . لملمتْ كلَّ ما استطاعتْ يدُها أن تصلَ إليه من أوراقٍ باحتْ فيها الورودُ على أسطرها خجلاً ونَزَقاً ، عجَنَتْ من الصمتِ خبزاً ووضعتْهُ على النار، أحضرتْ بعضَ قطعِ الجُبن الصفراءِ الشاحبةِ زاداً ، وازدادتْ مع انحناء الصَّحَاب عناداً. رسمتْ حواجبَ وجهِهَا انديـاحاً لكلِّ الأقواسِ المُسَالمةِ وهَزأَتْ بالسلام المخاتلِ، والغُبن الضحَّاكِ ، وركَّبَتْ جُمَلَ التَّاريخِ وعلى سَنامِهِ صرخَتْ : كفانا اجتراراً !!
رآها حبيبُها فأقبلَ عليها يعانقُها ،يقبّلها ويذودُ عن أنّاتِ وجهِهَا الطليقة ، أمسكَ بيديْهَا وقال نجلسُ سوياً فهمستْ : بل نفترشُ السَّحابَ العصيَّ على التوَحُّدِ ، التلاقُحِ ،التثاؤبِ والأمنياتِ البليدةِ «بمهديّ منتَظَرٍ» يحل علينا فُتستعاد على يديه البلادُ ، ويعلِن المعتدون توبتَهم وتراجعَهم عند قدميه . جلسا سويا : فأظهرت كتابَها المختبئَ وقالت : هئته لك ! نظر مليا فوجد الكتاب وقد اصفرتْ أوراقُهُ وأكلتِ الأرَضَةُ كلماتِه ولم يبقَ منه سوى كلمةٍ للتَّجَلّي : «وطنٌ يعانِد قاتِلِيه» كانتْ السماءُ ملبَّدةً بالفراق ، والنجماتُ شريدة ، ومآقي الأحبة من الأهلِ والصحابِ ممتلئةٌ بدخان الأسئلةِ الحائرةِ عن هؤلاء الذين يرتشفونَ الدَّمَ في كؤوسنا فأرجعتْ بصرَهَا إلى الأرض ونظرتْ إليه متسائلةً فأطرق واجماً وراحا سوياً يسعِلان بشدَّةٍ من تلك الرائحةِ التي زكَمَتْ الأنوفَ . التقطتْ أنفاسَها ،رشفتْ شَرْبَةَ ماءٍ من يَدِهِ ثم رَنَتْ من جديدٍ متأمِّلةً المدى و قالت لحبيبها : انظر هناك إنه طريقٌ ممهَّدٌ ونظيفٌ ليس به ثمَّة ضجيجٌ فتعال نركضْ سويَّاً.. !
نظر حبيبُها إلى حيث أشارت فوجدَ الطريقَ جِدَّ طويلةٍ على جانبيها تعلو أشجارُ

السرو الظّليلة وعلى مَدَدِ النظر تلعبُ بنتٌ صغيرةٌ بفستانٍ أبيضَ وجديلةٍ طويلةٍ تبادلا فيما بينهما النظرات ثم ركضا صوب الصغيرةِ واقتربا كانت البنتُ فرحةً تتقافزُ، الجبينُ شاخصٌ والرؤى محيطاتٌ وبحارٌ، تفرِد البنتُ يديَها فرحةً فتحط عليها الفراشاتُ وتتراشقُ على كفَّيها الأمنياتُ : سأصبح شاعرةً وأبث عشقي للوطن في أغانٍ طويلةٍ، سأتزوج وأنجب بناتٍ وبنينَ ! أسرعتِ الخُطى لتقتربَ من الصغيرةِ ولْتَمُدَّ يديَها مثلها فتحط الفراشاتُ على باطن كفيها وتتدثر مستدفئةً بخطِّ العمرِ وخطِّ القلب و خطِّ الحياةِ وخط القَدَرِ الأكثر صِدقاً دون تمويهٍ بين تعاريجِ يدَيهَا البضَّةِ الرقيقةِ . تاهتْ بين الخطوط والقمم الممتلئة باللحم عند محور أناملها بينما راح حبيبُها يناديها : تمهّلي ، اصطبري قليلاً حتى نكملَ حديثَ الوَجْدِ ، ونلملمَ ما افترشناه على الأرض ، ثم ننتظر مرورَ العرباتِ ، ونهدِّئُ قليلاً حتى تنفتحَ إشارات العبور فنعبر سوياً لكنها أسرعتْ دون أن تلتفت، اغتنمتْ فرصتَهَا المواتيةَ ، عبرتْ صَوْبَ الضِّفة الأُخرى، لوَّحتْ له بيديها مودعةً وقد أعطتْهُ ظهرهَا ،وعبَرَتْ فرِحَةً لا تُبالي إلى حيث لُجَّةِ الوجودِ فكشفتْ عن ساقيها لقوس قزح وتركتْ فراشاتِ الأماني لجة الوجود فكشفت عن ساقيها لقوس قزح وتركت فراشات الأماني تركض متقافزةً على جسدها ، وراحت فرِحةً تعانقُ- البنتَ التي تنتظرُها – ضاربةً بعرض الحائط كلَّ ما خَطَّ في مواثيقِ الخوف وكُتُبِهِ - من وصايا . إلى : عهد التميمي..!

شَـارَةٌ

تولَّى «المحافظُ الجديدُ» مهامَ منصبِهِ بعدما أُقيل المحافظ السابقُ وسط ما تَوَاتَرَ من أخبارٍ تؤكِّد أنه أُقيل لأسبابٍ خاصَّةٍ من جهاتٍ سياديَّة عليا تخص انتماءاتِه الدينيةِ والعرقية والمذهبية ! أعلن المحافظ عن بدء عهدٍ جديدٍ تتخلص فيه البلدةُ كلُّها من كل مساوئ النظام السابق وأعطى شارةَ بدءِ العمل. فتجمَّعت كلُّ الهيئاتِ المعنيَّة من رجالاتِ المجلس المحلِّيّ و موظفو البلدية ومنظمات الحفاظ على البيئة وتعاونوا فيما بينهم من أجل استكمال خطةِ نظافة البلدة مما عَلَقَ بها من أتربة وقاذورات . أصبحتْ الشوارعُ ، الطرقات ،الأسواق ،الأرصفة واجهاتُ المحال وحتى تماثيل الزعماء نظيفةً تماماً ولامعة . أشرقت شمسُ يومٍ جديدٍ فقام الأهالي متثائبين، متكاسلين، ونزلوا بخطواتٍ متوجسةٍ راحوا يخْطُون في ظلِّ الطرقات النظيفة للغاية ، الهواءُ النَّقِيُّ بشدّةٍ ووسط الأشجارِ الخضراءِ الكثيفةِ والأزهارِ التي تضوع رائحتُها في كل الأرجاء . اندهش الجميعُ ، عمَّتْهم الحَيْرةُ ،تملَّكهم القلقُ ،تشكَّكُوا ، توجَّسُوا وتيقَّنُوا أَنَّ في الأمرِ شيئاً فرجَعوا مهرولين إلى بيوتهم دخلوا البيوت، غلقوا عليهم الأبواب جيداً وأمروا الأبناء والزوجات كما أكدوا على الأحفاد بألّا يفتحوا لأي طارق يدق أبوابهم حتى وإن كانوا يعرفونه ويثقون به . ثم راحوا يهمسون في آذان زوجاتهم - حتى لا تسمعهم الحوائط- بأن هناك مؤامرة مدَّبرة بإحكام للقبض على الكثير من شباب البلدة البريء لكنهم متيقظون لذلك تماما ولن تنطلي عليهم خططُهم الماكرةُ مهما بالغوا في تنظيف الحواري والأزقة والشوارع الضيقة المتفرعة عن الشارع الرئيسي . أقيل «المحافظ الحالي» وسط ما تواتر من أنباء على شبكات التواصل الاجتماعي المختلفة عن ترويعه المواطنين وإجبارهم على المكث داخل بيوتهم لا يبرحونها مما أدى لتعطُّلِ عجلة الإنتاج كثيرا ، وتعطُّلِ مصالح الناس، وخسارة البورصة في الأسواق المالية العالمية ! وذهبَ الرجلُ واستلم «المحافظ الجديد» مهام منصبه وظل لأيامٍ عديدةٍ يتحدث في الصحافة والإعلام ويُدلي بتصريحاته للفضائيات عن خططِه المستقبليةِ للقضاءِ على كلّ ما يُعِيقُ عجلةَ الإنتاج .. !

فارتفعتْ الزغاريدُ ، وامتلأتْ الشَّوارعُ باللَّافتاتِ و بالبَشَرِ يهنِّئونَهُ وراحَ البعضُ منهمْ يردّدُ عبرَ مكبراتِ الصَّوْتِ : الرجلُ المناسبُ في المكانِ المناسبِ ... يحيا العدلُ

، يحيا العدلُ .بينما ارتفعتْ في أماكن عدَّةٍ رائحةُ الدُّخَانِ الكثيفةُ والمنبعثةُ من حرقِ بعضِ الأشجارِ المُعَمِّرَةِ . ووسط الأغنياتِ والهتافاتُ ضاعَ في الزِّحَامِ صوتُ وَلْوَلَةِ أمٍّ ملتاعةٍ تبحثُ عن ابنِهَا الصَّغِيرِ الَّذي اختفى في الزِّحامِ ولم يُعثَرْ لهُ على أثرٍ منذُ ثلاثةِ أيام .

قَتْل

أصبح اسمُ «نغم صبيح « حديثَ الساعة . احتلتْ قضيتُها جميعَ وسائلِ الإعلام على اختلاف توجهاتها . كانوا قد عثروا على جثة « نغم» بالصدفة وقد تم طعنُها إحدى عشرة طعنة في أماكن متفرقة من جسدها ثم لُفَّتْ بغطاء أزرق كالح وأُلْقِيَ بها في أحدِ الشَّوارعِ الجانبيةِ المظلمةِ . شَغَلَتْ القضيةُ الرأيَ العامَّ ، وأثارتْ ملابساتُها تَكَهُّنَاتٍ عِدَّةٍ.. ! فقد فشلتْ التحرياتُ في فكِّ طلاسمِ القضيةِ فكلُّ المشتبهِ بهمْ أبرياءُ والباعثُ عليها مبهمٌ ولم تكن هناك أداةٌ للجريمةِ . حينها قُيِّدَتْ القضيةُ ضدَّ مجهولٍ . وجاء تقريرُ الطِّبِّ الشَّرْعِيِّ كاشفاً لبعضِ الدِّلالاتِ الحياديةِ تماماً متمثِّلاً في أنَّ القتيلةَ - وقتُ حدوثِ الجريمةِ – لمْ تقاومْ عُنْفَاً ، ولم تُفَضْ بكارتُها ، ولم يُسرَقْ من أعضائِها شيئاً . ازداد لغَطُ الناسِ وارتباكُهم وعمَّتهم الحيرةُ .. أمَّا الشبابُ المتحمِّسون كثيراً و الذين هم في مثل عمرِها فقد أنشأوا صفحةً خاصةً لها على « فيس بوك « وأسمَوْهَا « قَتْل « كانت الصفحة تُظهر صورتَها ضاحكةً ، اسمَهَا كاملاً، شعرَها مسترسلاً، عمرَها الذي لم يتجاوز السادسةَ عشر ، لون عينيها التبغيّ ، لونها المفضَّل ، وأيضاً ما كانت تحلم به وتتمناه لنفسها ولأهلها ولبلدها . تبادل الناس فيما بينهم صورتها عبر رسائل ال « اس ام اس « مقترنا بسؤال ملح من قتل الفتاة البريئة.. ؟؟؟

وانبثقت بؤرةُ تكهُّناتٍ واحتمالاتٍ شتَّى راحت تتسع شيئا فشيئا.. كان متابعو «انستجرام» يتجادلون فيما بينهم عن احتمال كون الفتاة داعرة ، فاجرة وأن عذريتها ليست دليلا مؤكدا على حسن سلوكها . أما بعض المتابعين لصفحة « قتل» فقد عبَّروا عن الكثير من الشكوك التي ساورتهم عن كون الفتاة لصة تنتمي لإحدى العصابات المتخصصة في سرقة الآثار وأنها ربما تكون قد احتفظت بقطعة من «الرأس الفرعوني» المقسم لثلاث لتساوم على حصتها في الصفقة . كما حلَّق الخيالُ بأحدهم فعبَّر عن إحساس جارف يرقى لليقين كما تقويه الأدلة والبراهين من شكل الفتاة ، ضحكتُها ، ملابسُها بأن الفتاة كانت قوَّادة ،تهيِّئ الزمان والمكان نظير المال فتشاجرت مع أحدهم وقد كان متعاطيا للمخدرات فطعنها وهو يهذي غير مبال ثم ولَّى هاربا... ؟؟ لكنَّ آخرين هبُّوا للدفاع عنها وتبرئتها مؤكدين على طهارتها ومشككين في كونها قد تعرضت لمحاولة اغتصاب من أحدهم فقتلها حين

قاومته وبلَغتِ الافتراضاتُ مداها حين ذهب أحدُهُم إلى افتراض أنها سحاقية تشاجرت مع قرينتها فطعنتها -انتقاما- عند الفراق . ولّما لم يعد هناك ما يُقال ، صمتت كلُّ الاحتمالات . وتوقفت أيدي المتابعين عن نشر علامات الإعجاب ، النكزات والتعليقات . حتى ظهرت تغريدة صغيرة كتبها أحدهم على تويتر « القتيلة شاهدة على جريمة كبرى «» عندها اتفق البشرُ جميعا دون جدالٍ ، رامين بعرض الحائط كلَّ احتمالاتهم وفرضياتِهم الأخرى..!!

وبزغ فجرٌ جديدٌ من الأسئلة المغايرة حيث استقرَّ في قلوبهم جميعا وعلى اختلاف أعمارهم ،دياناتهم ، ميولهم براءة نغم فاتجهوا بعقولهم نحو منحى آخر أكثر خطورة كادت تزلق أقدامُهم فيه . تساءلوا- بثبات - عن نوع الجريمة التي كانت « نغم» شاهدةً عليها والتي تخص واحدا من كبراء البلد وسادتها !! أهي قتل أم سرقة أم زنى .... أم تجارة بالأعضاء ؟؟؟ ازداد عدد المتابعين لصفحة « قتل « حتى وصل عددهم لأكثر من عشرة ملايين، ووُلِدَ يقين جماعي أخذ يكبر قويّاً بأن» نغم صبيح» ما كانت إلا « الشاهد الوحيد « على جريمة بشعة قد حدثت لذا كان لابد من التخلص منها . تحركت وزارة الداخلية ردا على هذا الطوفان الهادر فأصدرت بيانها الذي فاجأ الجميع : « نغم صبيح « فتاة عمياء فقدت بصرها وهى طفلة صغيرة !!» ولازم البيانَ قرارٌ من النائب العام بحظر النشر في القضية . خَفَتَ وهَجُ الصفحة ، وأهملها القائمون عليها حين خَفت لهيبُ الحديث عن القتيلة على كافة الأصعدة. ولم تمض سوى أيامٍ قليلةٍ ، ظهرت بعدها صفحة جديدة مختلفة تماما عن صفحة» قتل» وسميت الصفحة باسم «ذاكرة بصرية « واستطاعت الصفحة أن تحظى بإعجاب الملايين فقد كانت الصفحة تتسم بالفكاهة والنكات البذيئة ،الوقحة فيما كان المتابعون يناوشُ بعضهم بعضا وكأنهم يعرفون بعضهم جيداً ، وراحوا يتساءلون فيما بينهم عن قدرة الذاكرة البصرية على الاحتفاظ بالتفاصيل الدقيقة..؟؟؟

وراحوا يضربون لأنفسهم مثلا عن قصة « رجلٍ ما « كان يقود عربته الفارهةَ ذات « ماركة ما « وقد أفقده السُكرُ وعيَهُ فصدم « أحدا ما « فأرداه قتيلا وقبل أن يفرراح يتلفت يمينا ويسارا ليتأكد من أن أحدا لم يره فإذا به أمام «فتاة ما» تعبر الطريق ببطء ممسكةً بحبل يجره أمامها « كلبٌ ما» . راح المغردون يسألون بعضهم : هل كانت عينا القاتل في التفاتته السريعة المرتبكة قد استوعبت أن الكلب المقيد يجر فتاة كفيفة ؟؟! في الصباح كتب أحدهم على (انستجرام) مطالبا الناس بثورة عارمة والنزول إلى الميادين احتجاجا رافعين مطالبَهم

بحتمية القبض على الكلب ، والتحقيق معه وتعذيبه إن اقتضى الأمر في أحد مراكز الشرطة حتى يُقِرَّ بالحقيقة ؟؟ مؤكدين على إصرارهم بعدم إعطائه فرصةً للهرب أو الادعاء كذبا بنسيان ما حدث ، ثم تقديمه كأقرانه للمحاكمة العادلة . وفي محاولة أخيرة للتهدئة ظهر بيانٌ صغير في إحدى الجرائد الرسمية عن قرب إعادة « فتح القضية » فانتابت الجميع فرحة غامرة وازداد حديثهم وعمقت تأملاتهم الفلسفية والعلمية عن كل أنواع الذاكرة ! فراحوا يتحدثون عن « ذاكرة الزمن «و» ذاكرة السمك « و» ذاكرة الحجر « و» ذاكرة التراب « و» ذاكرة الدم « و»ذاكرة التاريخ «و» الذاكرة العطنة « و» ذاكرة الماء» و»ذاكرة الطين « وبعضهم تحدث أيضا عن « ذاكرة العنكبوت « و»ذاكرة الفيلة « ووصف أحدهم الذاكرة بالأنثوية فرد عليه الأكثر علما متحدثا عن « نكاح الذاكرة « و» الذاكرة المثلية «. وسقطت « نغم صبيح « من ذاكرتهم المتَّقدة بالجدل فاختفت تماما من أحاديثهم ، تعليقاتهم ، تغريداتهم وكأنها لم تكن احتذاءً منهم جميعا « لذاكرة الخوف « وذاكرة « الامتثال المتوارثة « والتي تجعل أصحابها بعيدين تماما عن وطأة العقاب أو الإحساس المفرط بالذنب فالأمر وراثي بحت ليس لهم حيلة فيه ، أو ربما لهم بعض حيلة لكنهم آثروا الهدوء والسلامة ... فمن يدرى عنهم... ؟؟

عَوْدَة

حدث أنْ تمرَّبك فترةُ صمتٍ.... لا مزيد من الكلام لا مزيد من الشعور..لا مزيد من الأشخاص .
(دوستوفسكي)

عدتُ إلى البيتِ بعدَ عدةِ ساعاتٍ أمضيتها واقفا في قسم الشرطة دخلتُ البيتَ أرجفُ صمتا ، خلعتُ حذائي ،أمسكته بيدي ولم أدرِ في أي الأمكنة أضعه- فقد كنت متخما بحيرةٍ خانقةٍ-فقذفتُه لا مباليا فسقطتْ كل فردة منه في اتجاه بعيدة عن الأخرى. دخلتُ الحمامَ وبي رغبةٌ أن أستحم لكنّ رغبة مساوية ومعاكسة جعلتني أركن تماما لرائحةِ العرقِ المالحةِ التي اجتاحت جسدي . دخلت المطبخ ، وشربتُ زجاجةَ ماءٍ مثلجٍ بأكملها لكني رغم ذلك لم أُحِس بأنني ارتويتُ وقفتُ أمامَ اللهبِ لأصنع لنفسي فنجاناً من القهوة وأنا أحاول بهدوء استعادة غموض ما حدث !!كان منظراً بشعا وحادثا أليما حيث كنا في الصباح وسط الزحام مثلي مثل الآلاف من البشر مهرولين صامتين صوب أعمالنا لا نلوي عن شيء عندما استوقف رجلٌ رجلاً آخر ظنَّ يحادثه ثم فجأة طعنَهُ عدةَ طعناتٍ فأرداه قتيلاً وغطَّتْ الدماءُ الغزيرةُ الأرضَ لكن القاتلَ لم يحاولْ الهربَ بل إنه قد أعطى هاتفه لأحدِ الواقفين ليقومَ بإبلاغِ الشرطةِ.. !!! كنت كالآخرين لا أعرفُ القاتلَ ولا القتيلَ ولكنَّ الشرطةَ حين جاءت أخذتنا جميعا شهودا على الواقعة وقامت باستجوابنا جميعا ..!! كانت إجاباتُنا واحدة وكلنا أكَّدَ بأننا لا نعرف القاتلَ ولا القتيلَ وأنَّ وجهَ أيٍّ منهما لم يكن مألوفا لنا ولم نَرَهُمَا من قبل ولا نعرفُ السببَ الحقيقيّ وراءَ الحادثِ كما أكدنا جميعا أنَّ الزحامَ الشديدَ هو السببُ الوحيدُ الذي أعاق حركتَنا وحالَ بيننا وبين تركنا للمكان . أمسكتُ بفنجانِ القهوةِ ووقفتُ في الشرفة أنظر للشارع كانت الحافلات تسيرُ في اتجاهاتٍ عدةٍ متعاكسةٍ بينما على تخوم الأرصفة أطفالٌ يئنُّون من وجع الخطواتِ رحتُ أرتشفُ ببطءٍ محاولاً إقناع نفسي أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام والأمر لا يعدو أنْ يكونَ سوء حظ جعلني بالصدفة أحدَ شهودَ هذهِ الواقعةِ . وقبل أن أنتهي من فنجان القهوة كان هناك على مددِ البصر

رجل يمشي يُشبُه القتيلَ تماما ، نفس العينين والحاجبين والجرح الغائِر أسفلَ الذقنِ خُيِّلَ إليَّ أنني أتوهم من أثرِ الإرهاقِ والتعبِ سوى أنه أشارَ لي من بعيد وظل يضحكُ ويلوّحُ لي بيديه ويناديني باسمي فتركتُ الشرفةَ والبيتَ ونزلتُ مسرعا أعدو وراءَهُ حافيَ القدمين .

تَعَاطُفٌ

هي عادتُهُ كلَّما جاء إلينا :غاضباً، متجهِّمَاً ،عَبُوسَاً يقذفُ كلماتِ السِّبَابِ كحِمَمٍ بركانيَّةٍ انفجرتْ لتوّهَا ، بينما تتدفَّقُ الألفاظُ النابيةُ من فمِهِ الَّذي تساقطتْ أسنانُه وامتلأتْ زوايا حوافِهِ بالتجاعيدِ لتصيبَ كلَّ مَنْ حَوْلَهُ بالصَّمْتِ المُطْبِقِ فلا يستطيعُ أحدُنَا الردَّ عليه . يأتي دائماً ،يداهُ تَقْبِضَانِ بعنفٍ على مِرْفَقِ الفتاةِ الَّتي لم يتجاوزْ عُمْرُها العشرينَ. ومُقَاطِعَاً دائماً لها حين تتكلَّمُ أوْ تَشْكُو لَنَا من ضِيقٍ وصُعُوبَةٍ في التَّنَفُّسِ قَدْ أَلَمَّا بها في اللَّيالي السابقةِ . كُنَّا نقومُ بإجراءِ كافَّةِ التَّحاليلِ ،نتأمَّلُ صُوَرَ الأشِعَّةِ جيداً ثم نخبرُهُ بودٍّ وتعاطفٍ بأنَّنا لا نجدُ سبباً عُضْوِيَّاً لمرضِ ابنتِهِ وشكواهَا المتكرِّرَةِ..!!

كان يقابل ودنا له وتعاطفنا مع شكواها بعدائيه مفرطة ويظل يغمغم بكلمات لا نستبين معناها ؟؟ حتى كانت تلك المرة التي حاول فيها أحدنا ان ينصحه قائلا : اعتني بابنتك جيدا ،الفتاة لا تعاني من مرض عضوي فربما تعاملها بقسوة لا تتحملها رقتها المفرطة !! عندئذ لم يكتفي بصفع الطبيب على وجهه بل أصر على كتابة شكوى قانونية ضده أخذت دورها في التحقيق وانتهت بخصم ثلاثة أيام من راتب الطبيب وفضيحة مدويه عن مغازلته الصريحة لإمرأة أمام زوجها ! وفي المرة التالية وتحسبا لردة فعله العنيفة قمنا بفحصها جميعا كانت شاحبة ،نحيلة البدن كثيراً، وظلت تسعل بعنف وتشتكي من عدم قدرتها على أخذ انفاسها كما اكدت ان نوبتها السابقة من ضيق النفس كادت ان تودي بحياتها !!

اقترحنا حجزها بالمستشفى فاستشاط غضبا وكاد أن يبصق على وجوهنا جميعا . صمتنا تماما ثم قام أحدُنا فأحضرَ له ورقةً قام على مضض بالتوقيع عليها بأنَّه ملتزمٌ بعلاجها على نفقته الخاصة ، بطريقته الخاصة ومتحمِّلا لتبعاتِ كل ما يُتَوَقَّعُ أنْ يحدث لها. مضى كعادته ممسكا بمرفقها كطائر يُخشَى عليه من الانفلات بعيداً لكنه عاد بها بعد عدَّة أيامٍ وهى أكثرُ شحوبا وبنفس شكوتها من صعوبة التنفس الحادة !! في هذه المرة لم نقم بفحصها فقد أجمعنا فيما بيننا أنَّ سبب علَّتها عارضٌ نفسيٌّ مزمنٌ وأخبرناه ونحن في منتهى الحذر أن يراجع طبيبا نفسيا ..!!

كنا جميعا في منتهى التعاطف معها، و الخوفِ كثيرا على تلك الرقيقةِ الصموتِ

الذي أوقعها سوءُ حظِّها مع رجلٍ متجهّمٍ مثلِهِ وراح كلُّ واحدٍ منا يصرّحُ بما جال بخاطره، عن نوعية العقاب الذي ستتلقاه المسكينة منه جزَاءَ نصيحتنا له . وبالفعل حين جاءتنا في المرة التالية همستْ لنا وهي خلفَ ستائر سرير الفحص بينما عيونُها تتلصَّصُ عليه وهو واقف بعيداً بأنه قد جَلَدَهَا عدَّةَ جلداتٍ متتاليةٍ على ظهرها وحاولتْ أن ترينَا الجروحَ المتناثرةَ على مسامِ جسدِها . لكنها هذه المرة كانت أكثَر مرضا فقد بدت ذابلةً جداً ،منهكة ،ضعيفةً ، تعاني من انخفاضٍ شديدٍ بضغط الدَّمِ نتيجةً لرفضها التام للطعام ثم انفجرت باكيةً تشكو أيضا من صعوبة التنفس أجْمَعْنَا أمرَنَا فيما بيننا على وجوبِ إدخالها المستشفى وإبعادها عنه ولو لعدة أيامٍ تهدأ فيها روحُها و تسترُّ عافيتَها . اجتمعنا بمدير المستشفى وأخبرناه بكل ما نعرفه عن حالتها وقدَّمْنَا له اقتراحاتِنا تجاهَ حالتِها فأبدى هو الآخر تعاطفاً شديداً مع حالتِها ووافقَ على ما انتوينا فعله أعدنا إجراء الفحوصات ، قمنا بعمل عدة إشاعات على الصدر ثم أخبرنا الرجل عن شكوكنا في أنَّ زوجتَه تعاني من مرض خبيث في الصدر وأنهُ لابدَّ من إدخالها المستشفى لاستكمال باقي الفحوصاتِ وللطمأنينةِ عليها ..!

جَفَلَ الرجلُ ثم صمت ثم بادَرَ بالقبول على مضضٍ وقد أسقط في يده ولم يستطعْ الفِكاكَ من دائرتنا التي أحكمناها حوله. وفرحنا كثيرا إذ استطعنا أخيرا أن نثأر منه ، و نبعدها عنه .. ولو لبرهة من الوقت تستطيع فيها أن تستريح ، تلتقطُ أنفاسها وتسترُّ عافيتَها . وزيادةً في تعاطفنا معها أوصينا أطباء الفترة المسائية والممرضات وحتى العاملات أن يتعاونوا جميعا معها ويهبوا لنجدتها إذا احتاجت شيئا بعدما حكينا لهم تفاصيل قصتها ومدى قسوته عليها فأبدى الجميع تعاطفا شديدا مع حكايتها لدرجة أن أحد العاملين تبرع لإحضار ابنته ترقد بجانبها ،تؤنسُها وتساعدها إن احتاجت شيئا . في الصباح انتظرناه لساعاتٍ طويلةٍ أن يأتي بضجيجه وعبوسِ وجهِهِ وقد تملكنا زهوُ الانتصار عليه لكنه لم يأتِ وعند الظهيرة جاءتنا عَرَبَةُ الشرطةُ ونزل منها الضابطُ ومعاونوه وطالبونا جميعا للإدلاء بشهادتنا فقد وجدوا الرجلَ مقتولاً في بيته ، مطعوناً بعدَّة طعناتٍ في كبده.. !!

وأقسمنا جميعا – دون أن يعترينا شيءٌ من ريبة أو تواطؤ-بأن القتيل قد جاء بها ثم تركها لدينا وانصرف وحيدا ولم نره بعدها وأنها مكثت في المستشفى طوال الوقت فقد كانت حالتها طبقا لما هو مدوَّنٌ بالأوراق الطبية الرسمية اشتباه الإصابة بأحد الأورام الخبيثة وأنها كانت تحت الرعاية الطبية لحين التأكد من الأمر!! وانصرف الجميع دون أن ينظر أحدُهم وراءَه ،غير ملتفتين للبنت الصغيرة

التي لم يأخذِ الضابط أقوالَها والتي راحت تتجول في الغرفِ وفي يديها تفاحٌ أحمر جميل كانت المرأة قد أعطته لها وهى توصيها أَنْ تبقى في الفراش لا تبرحُهُ لتحرسَ التفاحاتِ ريثما تذهبُ إلى دورة المياه وتعودُ بينما كان هناك شاباً يشيرُ لها بيديه من بعيد بأنْ تسرعَ الخطوَ كثيراً فتخطو صوبَهُ مهرولةً... مخترقةً بعنادٍ وتحفُّزٍ كلَّ البواباتِ الحديدية المتتالية .

فَحِيحٌ

ليلتُها هذه تختلفُ كثيراً عن كلِّ اللَّيالي الماضية . فقد اعترتْها رغبةٌ عارمةٌ، لتدفِئَ جسدَها الذي كاد أَنْ يتجمَّدَ من طول مكثِها في كهوفِ السكونِ ، والانتظارِ ملتحفةً بالترقُّبِ، والتمنّي . خلعَتْ عنها الارتباك ،والتردد اللذين طالما أوقفا سريان الشهوة في دمائها، وجعلاها تعود دائما من حيث أتت . وحين أجهدها الفحيحُ النابضُ في جسدها ،والعطشُ الذي اجتاح خلاياها اتَّخذت قرارَها دون تردّدٍ . وقررت أنْ تَرْوِيَ عطشَها مهما كان الثمنُ مؤلماً، وفادحاً ! بهدوء تسلَّلتْ إلى حجرته ، ومن خطِ سيرٍ تعرفه جيدا استقرت داخلها ..!

فكم اعتادت أن تدخلَ وتخرجَ في مراتٍ كثيرةٍ سابقةٍ، دون أَنْ تمسَّهُ أو يمسَّهَا . لكنَّ هذه المرة كان بداخلها إصرارٌ على أنْ تفعلَ به ما تريد . راحت تتأمل كل تفاصيلِ حجرتِهِ.. فراشَه الوثيرَ، والشرشف ذا اللون البنفسجيّ الفاتح ، القميصَ المتسخَ الملقَى هناك ، علبةَ السجائر نصفَ الفارغة على حافة المنضدة ، بقايا الشاي في الأكواب، ورسوماتِ القلوبِ الملونةِ عند حافةِ الجَوْرَبِ السوداءِ . رَنَتْ إلى الساعة المعلقة كأنما تقدِّرُ الوقتَ المتبقي للحظةِ لقائهما ، ثم راحتْ تحركُ جسدَها فَرِحَةً يمينا ، ويسارا ، للأمام وللخلف ،وكأنها على أنغامٍ تراقِصُهَا تزيد فحيحَ الشوقِ اشتعالا. هذه الليلةُ ستكون ليلَتَها سيأتي إليها وستأتي إليه . ستسكن إليه ويسكن إليها ، ستنسى عندَه ، وسينسى عندَها ما وسعهما النسيانُ سَيُبَلِّلُ نداهُ ما يبس منها. ستشتم رائحةَ شوقِه ستلامس نعومتُها مسامَ خشونتِه ، ستتلذَّذُ باسمرار جسدِهِ، وستعطيه الفرصةَ كاملةً لاكتشاف مجاهلِهَا وأحراشِهَا العطشى .. سَتُدخِلُهُ في بؤرة التوحُّشِ ليظلَّ يدورُ في مداراتها يجاهِرُ بالدخول يجاهر بالخروج يجاهر بالتعب . راحت تراوغ حياءها ، وتمعن في تخيل إشراقة الجسد من فيض التلامس الصامت ، وفوضى الامتزاج الصاخبة .. تُراها أين ستختبئ لتفاجئه ..؟

وأي الأوضاع ستتخذ لعربدته..؟

وكيف سيتشكل جسدُها في لحظة ألماً والتئاماً لا بُرْءَ منهما..؟

.. تراها ستنجح في أنْ تورثَه الإيمانَ بكراهية الفراق ..؟؟

بعد تفكير اختارت المشجب الذي يضع عليه ملابسه ، ولا مبالية تكوَّرَتْ على

ذاتها، وراوغت حركتَها لتبقى حبيسة انتظارها ..!
عند آخر الليل عاد مترنّحاً كعادته تفوحُ رائحةُ الخمر من أنفاسه اللاهثة ، وهو يحاول أن ينسى أيامَ عمره التي انفلتت من يديه لأسباب لا يفهمها . كان دائم الإصرار على نسيان شهادتِه الجامعيةِ، حبيبتَه الغائبةَ ، وظيفتَه التي التحق بها ، ومفرداتِ راتبه الذي يتسلَّمُه ! كان يحاول أن ينسى خُططَ الوطن المستقبلية للتغلب على الزحام، حوادث الطرقات ، تكدس القمامة، وازدياد معدلات السرطان تلك الخطط التي يتوارثها الحكَّامُ واحدا تلو الآخر. مترنحا خلع ملابسه قطعةً وراء قطعةٍ ثم مَدَّ يديه إلى الراديو فانسابت أغنيةٌ حاولتْ أن تأخذه للبعيد إلا أنه انفلت من كلماتها وأصاخ السمع جيداً ... تملكه إحساسٌ لا يراوَغُ بأن هناك وجودا ما ، رائحة ما، حركة ما ، تتملك المكان ، وتسيطر على اللحظة، لتعتريَه كعصفٍ ، و تناوشَه كصمت ، ثم تناغيه كطفلٍ راح يبحث، ويتفقد في كلِّ الأركان فلم يجدْ شيئاً . التقط ملابس النوم مِن على المشجب، وارتمى على الفراش لاعناً الخمر وهذيانه ، لاعنا الحب وأحزانه ، لاعنا الصمت ومترادفاته، لاعنا الفقر وأتباعه، لاعنا الوطن وعشاقه . وفي لحظة خاطفة ودون أي تردد أو مراوغة كانت قد انقضَّتْ عليه، ونالت وطَرَهَا منه ... راح يصرخُ صراخاً حاداً وعنيفاً يعوي ويعوي واضعا يديه على مكان الألم أما هي فقد انزلقت بخفة ، وانسابت بهدوء، وسارعت بالفرار إلى حيث الشجر الجاف الواقف في الخلاء خلف غرفته ولم تترك وراءها من أثر سوى الألمِ ، وعمقِ الآهات ، ودموعٍ تنساب حارَّةً قُبيل فقدان الوعي والسقوط

اِجْتِيَاحٌ

رغم تيقُنِي من إغلاقِ المنافذ كلِّها ، إلا أنَّها نَجَحَتْ في الدخول والبقاء. انتابتني الحيرةُ متسائلةً مِنْ أينَ أَتَتْ ..؟؟؟ وكيف بقِيَتْ ؟؟

كان اجتياحُها مقلقاً ، مريباً ومثيراً لدهشتي . بَنَتْ لها- - على غفلةٍ مني - بيوتاً كثيرةً في أمكنة متفرقةٍ داخل بيتي ، رغم إحكام غلقي الأبواب والنوافذ . رحت أهمهم بداخلي : ربما أتت من كوَّةٍ صغيرةٍ أو انبثقت من ركنٍ مظلمٍ لم أحفلْ به . هكذا أضحت عاملاً مشتركاً بيني وبين الموجودات المبعثرة من حولي : أركان الغرف ، خلف قطع الأثاث ، بين أرفف المكتبة ،خلف الفراغ المعتم للثلاجة ،أسقف الردهات وأيضا حول حافظة القمامة. لكنّي تجاهلتها تماما . رحت أمارس حياتي آكلُ ، أشربُ، اقرأُ ، أهاتفُ ،أتناسى ،أغضبُ وربما أُشْعِلُ غليونَ ذاكرتي وأَنفثُ الوجودَ كلَّه غير مكترثةٍ لوجودها. ورغم إصراري على التخلص منها إلا أنني لم أجد بداخلي رغبةً ملحّةً لاستخدام العنفَ معها ..!!

ربما لأنها بَدَتْ أمامي هادئةً ومسالمةً وليس لوجودها ضررٌ يُذْكَرُ إلا إحساساً داخليا ينتابني بالنفور كلما رأيتها . .. وبعد إمعان التفكير اخترت لها موتاً هادئاً وبارداً برشَّاتٍ متتاليةٍ من زجاجةِ المبيد التي اشتريتها خصّيصاً لإزالتها. اختفتْ لأيامٍ ثم ظهرتْ مرةً ثانيةً في بعض الأركان الأخرى . سمعتها مرة تهمس في أذني معاتبةً وأنا بين اليقظة والنوم : مالكِ بي..؟ ، أنا أقبع في إحدى الزوايا لا تسمعين لي همسا فلماذا تستعرضين فرط قوتكِ عَلَيَّ ..؟؟ اتركيني وانتبهي لمَن يساومونكِ عن بيتِكِ وجسدِكِ ،كتبِكِ وصخبِكِ، أحلامِكِ وصمتِكِ.. ؟؟؟

ورغم حجتها القوية لم تفلحْ في أن تضعني في زاوية الطمأنينة إليها وأصبحتْ رغبتي في التخلُّصِ منها أكثر إلحاحاً.

ذات ليلة تذكرتها ورحت أتفحص أمكنتَها الجديدةَ مثلما تذكرتُ «يونسَ» الذي هجر الشِّعرَ لأنه برأيهِ عالمٌ محدودٌ من الرُّؤى، وهجرني لأنني حياةٌ مكبَّلةٌ بالأسئلةِ، ودخل عالمَهَا طوعاً وحبّاً حتى أصبح شغوفا بحياتها كلِّها : عالمِها ،أنواعِها ،هندسةِ بيوتِها ،أنواعِ شِبَاكِها ،حياتِها، مماتِها وعنادِها، فهاتفتُه مرتبكةً وسألتُه النَّصيحةَ فقد فشلتُ تماما في التخلُّص منها رغم ما رَشَشْتُهُ عليها من المبيد الحشري لكني لم أسمع منه سوى ضحكاتِهِ الفَجَّةِ التي جعلتني أندم كثيرا على مهاتفته !و يوما

صحوتُ على صوت جرس الباب وعندما فتحتُ وجدتُ أمامي كما هائلاً من الكتب ،باقةَ وردٍ بيضاءَ، ومجسما مطاطيا ضخما لعنكبوت أسود ضخم وبرفقته كارتٌ صغيرٌ بخط يونسَ الرَّديء مدسومٌ بدقةٍ ومكتوبٌ فيه : إنها فلسفة وحياة !! وضعتُ الورودَ في إناء الماء ،رميتُ الكارت جانباً ،فتحتُ أولَ صفحةٍ من أول كتابٍ وقد بَيَّتُ النية أنْ أُعيدَ إلى يونسَ كلَّ هداياهُ مُرْفَقاً بها بعضاً من كلماتي الجارحة . بدأتُ أقرأُ صفحةً تلوَ صفحةٍ وكتاباً بعد كتابٍ قرأتُ عن الأنواع وتعرفتُ على أَشْكَالٍ..

بدأتُ أقرأُ صفحةً تلو صفحةٍ وكتاباً بعد كتابٍ قرأتُ عن الأنواع وتعرفتُ على أشكال الشِّباكِ ، عرفت الخصال العامة والخاصة وفهمت كيف تكون التفرقة بين الحيوات والألوان والأحجام . حين أوغلت في المعرفة اكتشفت عالَماً غيرَ العالَمِ وتدريجياً تحررتُ من وِحدتي و أنانيَّتي ثم نفضْتُ عن كاهلي نزقاً عقيماً أصررتُ عليه يوما . رحت أدخلُ في نوع وأخرجُ بصفاتٍ وأدخلُ في صفاتٍ فأتيقنُ تماماً من النوع ثم بدأت امتحن نفسي فأضع لها الأسئلةَ و أقيّمُ الإجاباتِ وأحزنُ حالَ الرسوبِ، و أضحكُ وأتراقص بَهجَةً للنجاح. . .دخل هذا العالمُ أعماقي فكنتُ أُحادث يونسَ بالساعاتِ أسألُهُ عن أحد الأنواعِ أو واحدةٍ من الصفاتِ. كنتُ أبحثُ عنها بجديَّةٍ وأنظرُ إليها مغتبطةً حين أكتشف موضعا جديدا قد اختبأت فيه وتأكدتُ أن عوالمَهَا قد دخلتني ،سكنتني ومن ثَمَّ استوطنتْ أعماقي. وفهمتُ لِمَ عاش يونسُ سنواتِهِ الطويلةِ معهم دون كَلَلٍ أو فتورٍ..؟

وأدركتُ بصدق معنى أَنْ تتوحدَ في الموجوداتِ التي لم تُعرْهَا أبداً أدنى التفاتةٍ . و»تغيَّرتُ كثيراً «هكذا همسَ يونسُ في أذني يوما على ضوء شموعِ المنضدةِ التي جمعتنا فرحَيْنِ ومع مرورِ الوقتِ ،امتزَجُ الصفاتِ ،تلاقُحُ الأفكارِ.. ذاب الحدُّ الفاصل بيني وبين كل ما حولي . تغيَّرتْ ملامحي الحادةُ وكلماتي الموجِعَةُ فأصبحتُ كائنا خُرافيا أكثرهدوءً ورويَةً ونظرتُ في المرآة فوجدتُني وقد نبتَتْ لي ثمانيةُ أزواجٍ من الأرجلِ وغَمَقَ لونُ بشرتي بعضَ الشيءِ وأحسستُ أنَّ عيوناً كثيرةً ملأتْ رأسي !!! وعُمِّقَتْ تجربتي فتعلَّمْتُ كيف أنسجُ الشِّبَاكَ ،وكيف أصنع خيوطَها المطرزةَ الواهيةَ الممتدةَ برفقٍ واختلفَ كثيراً معنى اللَّمْسِ والبصرِ عندي وفهمتُ كيف تكونُ الرُّؤْيةُ بعدَّةِ عيونٍ وكيف يكونُ الإبصارُ في أحيانٍ كثيرةٍ بلا عيونٍ ... ؟؟ و تيقَّنْتُ من جَدوى التفرقةِ، وكيف أكونُ الفريسةَ والصيادَ في آنٍ واحدٍ وكيف أنسجُ الشِّباكَ الممتدةَ من ذاتي بِتُؤَدَةٍ وكيف أُوْقِعُ الفريسةَ في الشَّرَكِ وكيف أرشُّ السُّمَّ بهدوءٍ وثباتٍ وكيف ومتى يكون قرارُ القتل حاسماً لا رجعة فيه ..؟؟

وتوطَّدَتْ كثيراً علاقتي بيونسَ حَدَّ الإدمانِ ولم أعدْ أستطيع الاستغناءَ عنه ولا عن عالمه ووصلت إلى درجةٍ ليس منها رجوع فلبستُ ثوبَ الفرنسةِ لشِبَاكِهِ وجعلتُه صيداً لشَرَكِي الممتدِّ على مَهَلٍ . وتزوجنا ... سافرنا لعدة أيام ثم رجعنا عندها قمت بتنظيف البيت جيداً ووضعتُ ستائرَ جديدةٍ وأصررتُ على قتلِها دَهْسَاً دون هوادةٍ أو تردٍ وأعلنتُ عدم رغبتي في رؤية واحدة منها ماكثةً في بيتي . راح يونس يمسك»الزعَّافة» ذاتَ اليَدِ الخشبيةِ المتصلبَةِ يضرب بها الأركان و الزوايا الجافةَ والرَّطِبَةَ وكنتُ أقرأ له بصوتٍ عالٍ عن فكرة– قتل الذَّكَرِ لأنه عنصرٌ غيرُ فعَّالٍ لبناء البيوت ورعاية الصغار فيضحك يونس مرتعدا ويكمل نشيطا ما كان قد بدأه . واستعملتُ كلَّ طاقتي للإبقاء على فرنستي داخلَ شِباكي أتأمَّلُهَا في كلِّ أحوالها وهي تئنُّ ،تصرخُ، تضحكُ ،تبكي وتدقُّ على الشَّبابيكِ تحلمُ بالهَرَبِ دونما جدوى بينما كنتُ أنا مكتظةً برغبة البقاء الغير قابلةٍ للدَّهْسِ أو تقويض الشِّبَاكِ وكنتُ دائماً مشغولةً في صُنعِ الشَّبَكِ بتمهُّلٍ وروِيَّةٍ واحتلال الزوايا المختبئة والمعلنة وكنتُ كثيراً ما أُطيلُ التَّحديقَ في عَيْنَيْ يونسَ بينما ، أُخَطِّطُ في القريبِ العاجلِ لإنجابِ طفلٍ وأَهْمِسُ بدلالٍ في أذنه ضاحكةً :

إنها فلسفةٌ وحياةٌ..!

نَظْرَة

اِضطرتْني الدَّقَّاتُ العنيفةُ ، المتكررةُ على الباب أَنْ أهبَّ واقفاً فَزِعَاً من مرقدي . راحتْ دقاتُ قلبي تَخْفِقُ بعنفٍ مضادٍ كاد أنْ يصيبَني باختناقٍ فرحتُ أتطوَّحُ على إثرِه وأنا أخطو يمينا ويسارا بينما لم أستطعِ التحكُّمَ في قطراتِ البَوْلِ التي تسرَّبَتْ وبلَّلت ملابسي . هرعتُ إلى الباب مبلَّلاً بينما أحاولُ أَنْ أبدو متماسكاً ، و حينَ فتحتُ وجدتُ رجلاً لا أعرفُهُ ففغرتُ فاهيَ دَهِشَةً وأطرقتُ خِزياً لا أدرى لِمَ..؟؟ دخل عنوةً وقد أزاحني جانباً وغير منتظرٍ لردِّي راح يطلقُ كلماتٍ أشبه بالرَّصَاصِ في وجهي : أمازلتَ موجوداً بالمكان..؟ ألا تفهمُ.. ؟؟ لقد أعطيناك فُرَصَاً متتاليةً ولَمْ تَرتدعْ ألا تفهمُ..؟؟ رحتُ أنظر إليه مذهولاً أوذُّ الاستفسارَ منه عمَّا يتحدث..! وأيَّ فرصةٍ تلك التي أعطانيها.. فلو كان حقاً كما يدَّعي لكنتُ فرحتُ به كثيراً وعانقته بلهفة.. ؟؟ ..

لكنَّه أكملَ لا مباليا باقي ثماني وأربعون ساعةً بعدها سأقوم بإبلاغ الشرطة عنكَ لقد تركتُكَ لأجلِ خاطر أمِّكَ الطيبة ، وإخوتك» المحترمين» رددتُ : (ل ل ل ل ل ك ك ك ن ن ن) فرفعَ مرفقه مشيراً في وجهي) : (أنت لسه عاوز تتكلم الصبر من عندك يارب) أغلقتُ الباب ، تذكرتُ أنهم قد قاموا ببيع البيت دون سؤالي أو حتى إعلامي ، كنا خمسةَ أولادٍ وثلاث بناتٍ وأمي اتفقوا جميعا فيما بينهم وتركوني أواجه مصيري بمفردي تماما مثلما كانوا يتفقون فيما بينهم بنظرات عيونهم ، بضحكاتِ شفاهِهم ، وإيماءات أيديهم بينما يتركوني في حَيْرتي تائهاً لا أحد منهم ينظر إليَّ أو يبادلني نظرةً بنظرةٍ ، كانت عيوني فارغةً تماما من دفءِ وجودِهم ،كلامِهم وربَّما حتى من وَهَجِ أفكارِهم عندما قلتُ» لا «» لن أبيع» ..!

باعوا البيت وأخبروني أنهم قد قاموا بتزوير توقيعي وأودعوا نصيبي من المال في حسابٍ باسمي في أحد البنوك حاولت أن أسالهم لماذا نبيع البيت وكل واحد يبتاع لنفسه شقة في مكان اخر ويعيش وسط غرباء..؟ ، لماذا لا نبقي على مكانٍ يصلنا ببعضٍ وذكريات تُهَدِّئُ من رَوْع اغترابنا لكنَّهم لم يلتفتوا مُطْلَقاً لما أقولُ وولَّوا لا مبالين عني حتى أمي لم تُلْقِ بالاً كعادتها لوجهةِ نظري بل ابتسمتْ في وجهِ كلِّ واحدٍ منهم قائلةً: أما أنا فسأكون الضيفَ العزيزَ عليكم سأجلسُ عند كل واحدٍ منكم بالتناوبِ شهرين ، وذكرتهم جميعا واحداً واحداً واسماً اسماً إلا أنا

وعندما نبهتُها لذلك لم تُكَلِفْ عينيها عناءَ إلقاء نظرةٍ لي بل غمغمتْ قائلةً : وأنت أيضاً ، وأنت أيضاً وبدلاً من أحاديثك الكثيرة انتبه للأطباق والملاعق التي كادت أن تسقط من يدكَ عندما استفسرتُ منهم عن (ذذذذ ك ك ك ك رر ري ي يااا ت ت ت ك ك ك م م) أجابوني لن نأخذ معنا شيئاً ، سنشتري أشياءَ جديدة تماماً لشققنا الجديدةِ ..!!

كان عليَّ أن أجمع كلَّ ما أريد قبل أَنْ أغادرَ، لا أدري إلى أين أغادر..؟؟

لكني سأغادر بيتي... تماما مثلما غادرتُ مدرستي لأنني حين قلتُ للمدرسة أنا الذي أجبتُ السؤال بالطريقة الصحيحة وليس عمرو ابن صديقتها اتهمتني بالكذب، وهددتني بقطع لساني ..!

رحتُ أجمع ما تبقى لي، ولم يكنْ ما تبقي لي كثيراً . (هارمونيكا) بلونَيْنِ فِضِيّ وأخضر قاتم، شهادات رسوبي المتكررة وتلك الدوائرُ الحمراءُ المتفرقةُ و التي تشبهُ عيونَ الشيطان ، قلم رصاص قديم ، صورة لي مع بعض أصحابي في المدرسة الابتدائية وما هذا الذي احتفظ به في قعر الكرتون المتهالك : يااااه يا لَفرحتي العظيمة لقد كان (تلسكوبا قديما أذكر أنه كان حلما بعيدَ المنال ظللت أقول لأبي : أحلم أن يكون معي(ت ت ت ل ل ل س ك و با) أود أن أرى به النجوم البعيدة ويوم أن اشتراه أبي وعاد به إلى البيت فرحت كثيراً وركضتُ صوبَه لكنهُ أشاح بيده مولياً عني : احترس كدتَ أن تصيب ملابسي بالاتساخ من جراء الطين والخراء العالق بحذائك ثم أعطى التلسكوب لأخي الأصغر المدلَّلِ كم أحسستُ وقتَها بافتقادي الشديدِ لمكانٍ أُثَبِّتُ فيه قدمَيَّ فلا أنا بالولد البِكري العاقلِ ولا أنا بالصغيرِ بالمدلَّلِ ، فقط كنتُ جملة صغيرةً بين قوسين لا محل لها من الإعراب ويمكنُ القفزُ عليها بسهولةٍ أو إعطائها صفةً وتمييزاً بتلك التهتهة التي وسمتني و التي أوقفت تدفق كلماتي وانسياباتها تركني أبي في حَيْرةٍ وبكاءٍ عنيفينِ غيرَ مُكْتَرِثٍ لما كان يشبه الفيضانَ الذي يهدرُ بداخلي وراح يفكُّ التلسكوبَ من أغلفته القطيفيَّة ويعطيه لأخي . كنتُ أسأل نفسي دائما: لماذا لا أموتُ لكي يأتوا ويلقون نظرةً عليَّ ربَّما نظرةً أخيرةً لكنها حانيةٌ واحتفظ أخي بالتلسكوب لا يسمح لي بأن آخذه إلا لثوان فقط أُلقي منه نظرةً على كل الموجوداتِ ذات الحدودِ الغائمة والأسطح المقعَّرة لكنِّي لم أستسلم فقد كنت أمد يدي و آخذه خلسةً دون أن يشعر أخي وأنظر خلاله فأرى النجومَ قريبةً ،جميلةً ومشعَّةً ،كنتُ أرى البحرَ أزرقاً واضحاً غيرِ زرقتِهِ الداكنةِ الطبيعيةِ ،كنتُ أرى هناك صائدي السَّمكَ يتبادلون النظراتِ معي عبر العدسةِ ويشيرون بأيدهم لي ضاحكين ..!

اليوم وأنا أُمْسِكُ (التلسكوب) من جديدٍ أحسست أنني سأعودُ مرةً أخرى إلى ذلك الصياد الذي قذفَ لي من قاربِهِ وردةً حمراءَ يانعة أمسكتُ (التلسكوب) ومسحت ما كان عالقاً به من التراب بخِرقَةٍ من قِطَعِ المطبخ والتي كانت أمي تقصُّها من ملابسي البالية رحتُ أمسح عدستَه وأنظر فبانتْ لي الأشياءُ جليةً من جديد فازددتُ غبطةً وسعادةً وصعدتُ إلى السطح. كانت أمي قد تخلَّصَتْ من كلّ ما كان على السطح من (برطمانات) المربى ، وأطباق الغسيل البلاستيكية ومن لوحاتي الممتلئة بالفحم ! رحتُ أُلقي نظرةً على الكون ، أجول في الكون بحركةٍ دائريَّةٍ لا يوقفها خطٌّ قطعيّ ، أُلقي نظرةً على الغسيلِ المنشورِ في كلّ الأسطح حولي ، والبيوتِ التي تصلُ أدوارُها إلى الطوابق العليا ، ولافتات الدعايةِ عن الساعاتِ ، والأطعمةِ ، وأطباقِ القنواتِ الفضائيةِ وملابس النساءِ الداخليَّةِ كنتُ ألتفتُ يمينا ويسارا عبر العدسة حتى توقَّفَتْ نظرتي تماما على امرأةٍ بعيدةٍ رأيتُها بوضوح عبر شُبَّاكٍ مطبخِهَا ، كانت ترتدي قميصاً عارياً بحمَّالاتٍ على كتفيهَا ، ويظهر أيضا من تحته حمالات المَشَدّ بلونٍ أكثر تناقضا كانت تضحكُ كثيراً وعندما تقابلَتْ نظراتُنا عبر العدسةِ ابتسمتْ بدلالٍ دون تحفظٍ وراحت تشيرُ لي بتفاحةٍ كانت بيديها تقضمُ منها وتضحكُ فرحتُ أضحكُ مثلها ثم أدرتُ محركَ العدسةِ لتقتربَ منها فرأيتُ ولَدَيْنِ بجانبها كانوا يشبهانها كثيرا سوى أن الأخير هو من احتفظ لنفسه بغمازتيها راحتْ تمسك بيد كل واحد وتجعله يشير لي وكأنما كانت تعلم جيدا أنني أتتبعها ولم تمضِ لحظاتٌ وكنتُ قد تعبت كثيرا من وقفتي إلا وقد وجدتُها تبكي بحرقةٍ تلطم وجهَهَا وتشدُّ في شعرها فقد كان هناك رجلٌ يصيح فيها ويمدُّ يدَهُ إليها مهدِّداً انتابني الذعرُ وحاولتُ التملُّصَ منها لكنَّ منظرَهَا ألحَّ عليَّ كثيرا فرجعتُ أُلقي نظرةً أخرى فوجدتُ الرجلَ نفسَه ووجدتُها نفسَها سوى أنها قد وضعتْ على كتفَيْهَا العاريتَيْنِ شالاً بلونٍ أحمرَ قانٍ كنتُ أود أنْ أناديَ عليها بأي اسمٍ -لا يَهُمُّ- فقط كلُّ ما أريده أن أنبهها ألا تخاف ولا ترتبك فأنا أقفُ بجانبها لكن بكاءها ازداد وأصبحتُ بوضوحٍ أسمعُ طَنِينَهُ في أذني كنتُ أعرف البيتَ الذي تقطنُ فيه من شكل الرسوماتِ الموجودةِ على جدران السطح فتركتُ (التلسكوب) مسرعا وقفزتُ الأسطحَ كلَّها من سطحٍ إلى سطحٍ كانت خطواتي تنسابُ برفقٍ وترتقي دونما تردُّدٍ ولا تشتكي من خوفٍ أو ارتباكٍ ككلماتي.. أخيراً وصلتُ إلى سطح البيت الذي تقطنُ فيه ، نزلتُ السلالم أعدو ، ثم وجدتُ باب شقتها مفتوحاً فدخلتُ مسرعا كان صوتُ التلفاز عالياً بينما الولدين أحدهما يأكل (مكرونة بالصلصلة) والآخر يقومُ بتحريكِ ذراع» البلاي ستيشن « رحتُ أتأملهم :كم كانوا في منتهى الروعة

والجمال والهدوء أبرياء لا يعرفون من يهدّدُهم محاولاً النيل منهم..!!
أدركت جيدا أنني لابد لي من حمايتهم رحتُ أبحث عن الأم في كافة أرجاء الشقة ، وجدتُها في حجرةِ نومِهَا نتفُ شعرَ حاجبيها بينما الرجل الذي كان يهدّدُها شبهَ عاريٍ، مستغرقا تماما في النوم وقفتُ أمامها وقد ازداد خوفي عليها وعلى الطفلين وحين رأتني ارتجفتْ هلعاً و سقطت منها المرآةُ مهشمةً على الأرض فأومأتُ لها (ل ل ل ا لا ت ت خ ا في) وفي اللحظة التي حاولتْ فيها الصراخَ أمسكتُ بها وكممتُ فمَهَا ثم جررتُها بقوةٍ إلى المطبخ ،التقطتُ السكينَ ورحتُ أطعنها عدَّةَ طعناتٍ في ثدييها وبطنها وكتفيها وساقيها حتى صمتت تماماً فتركتُها وعدت إلى الطفلين أربتُ عليهما قائلاً: لا تخافا الرجلُ الشِّرِّيرُ لن يهدّدَكما مرةً أخرى كان صراخُهما قد بدأ يعلو ويعلو ولم أستطعْ إسكاتَهما فما كان مني إلا أنْ قمتُ بطعن الطفلين عدداً لا يُحصى من الطعناتِ حتى سكتا تماماً . لملمتُ كلَّ الطعام المنسكب واللُّعَبِ المتناثرةِ فربما حين يأتي ليهدّدَهُما مرةً أخرى يأخذُ اللُّعَبَ معه ليغيظَهما
رجعتُ إلى المرأة كانت قد اطمأنتْ تماماً وهدأتْ. فغطيتُها بالشَّال وتركتُها في مكانها ، بينما الرجلُ الراقدُ في الفراش مازال نائماً وقد تزايدَ شخيرُهُ ، خرجتُ وقد أغلقتُ البابَ ورائي جيداً وتأكدتُ من إحكام غلقِهِ تحسُّبا لو عاد الرجلُ ليهدّدَها مرة أخرى فيجد الباب مغلقاً ، ثم رجعتُ إلى بيتي أُكمل جمعَ الحاجياتِ لأغادرَ مسرعا قبل أن يأتيَ صاحبُ البيت الجديد فيبصقَ على وجهي لتأخُّري في الخروج وتجاوزي المهلةَ المحدَّدَةَ ....!!!

جارونيا

تعلو حشرجةُ الاحتكاكِ حين يدفعُ بعنفٍ بابَه الموصدَ ، تدفعه رغبتُه الكامنةُ فيخطو بثباتٍ إلى الشرفةِ التي لا يتعدى اتساعُهَا عرضَ بلاطتين . يقفُ متأمّلاً بعيونِهِ الثاقبةِ الأطفالَ الصّغارَوهم يَخْطُونَ فرحينَ أسفلَ نافذتِهِ . تلفحهُ نسمةٌ باردةٌ لا يبالي كثيراً بها بينما يقشعرُّلها جلدُه الجافُّ الذي يلفُّهُ منذ عدةِ سنواتٍ والذي بدا متهدّلاً كثيراً في أماكنَ متفرقةٍ حولَ رقبتِهِ وأسفلَ بطنِهِ وفي فراغاتِ يديه . يقفُ عند حافّةِ الباب ويلتقطُ (الراديو)الصغيرَ الذي اعتاد أنْ يُمسكَ به أينما ذهبَ يبحثُ عن إذاعة الأغاني ثم يُسْنِدُ (الراديو) عند حافة أحدِ الأركان ويدندن بكلماتِ الأغنية التي عَلَتْ فجأةً . كان سورُ النافذةِ ممتلئاً كلُّه- إلا مساحةً تكفي لوقفتِهِ – «بإصيصات الجارونيا» تلك النبتةُ التي يعشقُهَا حدَّ الهَوَسِ فاشترى منها الكثيرَ، أنفق على سمادِها ، راح يرعاها ويُعطيها من فراغِ وقتِهِ ويُزَيّنُ بها نافذتَهُ . كان يرتّبُ الألوانَ الأبيضَ – الزَّهْرِيَّ– (الأورجواني) القاتم للغايةِ بترتيبٍ تصاعديٍّ متدرجٍ . راحتْ النافذةُ تُلْفِتُ نظرَ المارّينَ، الذاهبين والعائدين حتى المسرعين وهم يقودون عرباتهم لا يحرمونَ أنفسَهُم من اختلاس بضعِ نظراتٍ صوبَهَا فتنبعثُ من أرواحهم الطمأنينة والأمل في يومٍ مشرقٍ وحالمٍ. إلاّ «مروان» كان يركضُ مسرعاً لا يلتفتُ أبداً إلى تلك الورود المتداخلة ولا يعيرها أدنى التفاتةٍ رغم أنَّها دوماً ما كانتْ تناديه..!!

كان لا يستجيب لهسهساتها التي تأتيه على مَهَلٍ فيحسُّ بأنَّ هناك من يتعقبُهُ فيسرع الخطوَ دونَ التفاتةٍ لأحدٍ كما أوصتْهُ أمُّهُ فقد انتهى لتوّهِ من «كي جي» وأصبح الآن في الصف الأول الابتدائي وعليه أن يلتفتَ كثيراً لدروسه . راح يقفُ كلَّ صباحٍ في نافذته ينادي على (مروان) بكل الأسماء التي تخطر بباله محاولاً أن يحظى بنظرةٍ منه وعندما أعيتْهُ الحيلةُ انتظر متحفزاً وقبل أن يعبرَ (مروان) مسرعاً أسقطَ متعمّداً (الراديو) فسقط أمام قدم الصغير مباشرة فجفلَ الصغيرُ وتوقفَ ملتفتاً يمينا ويسارا حتى سمع نفس الهسهسة تأتيه من أعلى وحين نظر لأعلى وجد جنةَ الورودِ المائلةِ وسمع رجلاً طاعِناً في السِّنِ يعتذرُله عن سقوطِ (الراديو) منه عُنْوَةً ويتأسَّفُ له بشدةٍ عن احتمال إصابته بألمٍ من جراء (الراديو) الساقط من يديه المرتعشة. راح «مروان « يجوب بعينيه هذا الشريطَ

الطويلَ على الحافة من تلك الألوان فارتعشتْ خلاياه فَرِحَةً ، بينما العجوزُ يقطفُ باقةً من (الجارونيا) مجتمعةً حَوْلَ ساقٍ واحدةٍ وقد أزال منها أوراقَها الناتِئَةَ وتركَ السَّاقَ عاريةً ثم أنزلها عَبْرَ حبلٍ طويلٍ ينتهي بوعاءٍ صغيرٍ وأومأ لمروان ضاحكاً ومشجِّعاً : ضَعِ ال (راديو) هنا وخذ الورودَ . انتشى مروانُ منبهراً من شكل الوردِ ذاتِ الأوراق المتدثرةِ والنائمةِ على بعضها لتصنعَ دوائرَ بجانبِ بعضِها . في المدرسةِ حكى مروانُ لمدرسته القصةَ وعندما عاد حكى بالتفصيل لأمِّه وهي تقومُ بكيِّ ملابسِهِ ، وظلَّ منتظراً حتَّى عادَ أبوهُ فأعادَ ترديدَ حكايتِهِ وكانت مكافأتُهُ قبلاتٍ كثيرةٍ بعثروها على خدَّيْهِ وجبينِهِ وكلماتِ إطراءٍ وثناءٍ عليه وهم يعيدون عليه النصيحةَ بمساعدةِ من يحتاج مساعدةً وخاصَّةً إذا كان عجوزاً طاعناً في السِّنِ كجارِهِ . أصبحتْ عادةُ مروان اليوميةَ المرورَ قُرْبَ النافذةِ ووجهُهُ يرنُو إلى الأعلى يسمعُ الهسهسةَ فينتفضُ بخوفٍ مُبْهَمٍ ، ويرى الورودَ تُغرِيهِ فيتقافزُ لأعلى فَرِحَاً وعند قُربِ النافذةِ يُبْطِئُ الخطوَ فيروحُ العجوزُ يقذفُ لَهُ بالوردِ مبتسماً فيأخذُهَا فَرِحَاً مغتبطاً حتى كان يوماً أبطأَ الخطوَ ووقفَ تحتَ النافذةِ حتَّى ظهرَ له العجوزُ معاتِبَاً وحزيناً ثم أخبرَهُ أنَّ المياهَ قد انقطعتْ منذ ثلاثةِ أيام وأنه يحتاجُ إلى بعض الماءِ ليسقيَ الورودَ قبل أن تموتَ وأنزل إليه إناءً صغيراً وأمرهُ أن يملأَهُ بالماءِ من هذا الإناء الكبيرِ الذي وضعه خصِّيصَاً تحت الشرفةِ منذ ليلةِ البارحةِ ملأ مروان الإناءَ بالماء على قدْرِ استطاعتِه فأمرهُ بلهجةٍ حازمةٍ لا تَحْتَمِلُ تردُّداً أنْ يصعدَ بِهِ فصعدَ . دخلَ ممسكاً الإناء ومسرعَاً صَوْبَ الورودِ لنجدَتِهَا من العطشِ ، لكنَّ العجوزَ كانتْ قبضتُهُ مفاجئةً جِدّاً ومُحْكَمَةً للغايةِ وفي لحظةٍ حمراءَ كبرقٍ أخذَهُ إلى الفراشِ خالعا ملابسَهُ وملابسَ الطِّفْلِ مواجهاً ارتباكَ العينينِ وهلعَهُمَا بانتصابٍ أسودَ ومراوِغَاً الرَّعَشَاتِ والدموعَ بلحظةٍ قاسيةٍ صُلْبَةٍ ليس منها رجوعٌ . راح الطفلُ يقاوم اهتزازاتٍ وزئيرٍ لا يفهمُ معناهُ ، ولا كيفَ ينفلتُ منه.. ؟؟ ولمْ يكنْ معه سلاحٌ أمامَ جحافلِ الأسلحةِ العاتيةِ، واليدَيْنِ الَّتي تجوسُ معربدةً والأعضاءُ التي ليس بينها تكافؤٌ تحاولُ الامتزاجَ بعنفٍ وتصرُّعلى التماهي ببعضِها فراحَ «مروانُ» يصرخُ ينزفُ من تحتِهِ ويصرخُ ، يتألَّم ويصرخُ ، تتمزق غلالَتُهُ التي تلفُّهُ ويصرخُ ،كان العجوزُ قد بلغ حدَّاً ليس منه رجوعٌ فضغطَ بالوسادةِ على فمِهِ ليوقفَ صرخاتِهِ بينما راح يكمل ما بدأه بشراسةٍ ودَوِيٍّ وانتقامٍ جاءتْ جميعاً من أوديةٍ سحيقةٍ وبعيدةٍ . وصَمَتَ مروانُ ، خَفَتَ صراخُهُ تماماً قبل أنْ يَهْمَدَ هو، وحين أفاق وقد اكتملت شهوتُهُ وهدأ اجتياحُهُ وتناثرَتْ دفقاتٌ سائلةٌ ملوِّثَةً أماكنَ الجراحِ كان الطفلُ قد هَدَأَ -أزرقاً مَيْتَاً..!!

راح العجوزُ يلملمُ الأشياءَ «الشاهدةَ»ولفَّ الجثةَ جيِّداً وانتظرَ خفوتَ الخطوِ فألقى بالجثةِ في أحدِ صناديقِ القُمَامَةِ وعادَ مُسْرِعَاً يُسَمِّدُ الأصيصَ الجديدَ الذي اشتراهُ . كانتِ الأمُّ تضربُ صدرَهَا، تصرخُ كالمجنونةِ فقد مر نهارانِ وهجمَ الليلُ الثاني ومروانُ لم يزلْ غائباً عنها بينما الأبُ يروحُ ويجئُ في اتجاهاتٍ عدَّةٍ مرتعشِاً يهاتفُ الشرطةَ مرَّةً و يسأل الذاهبين والعائدين مراتٍ: هل رأيتم مروان..؟؟؟؟
بينما مروان يرقدُ في القاعِ منتفخاً و كلُّ واحدٍ يأتي يُلقي بالقُمَامَة فوقَه ويقفُ يسمعُ قصةَ الاختفاءِ فيضربُ كفَّاً بكفٍّ ويدعو لهما بأن يعيد اللهُ « وحيدَهما «إليهما سالماً لم يمسَسْهُ أحدٌ بِسُوءٍ..!! .

احتشاد

«ليتني أستطيعُ الكتابةَ بغموضٍ مثلَ قطةٍ»
« ادجارآلان بو»

أتحركُ يمينا ويسارا منشغلاً عن- تلك الدِّماء التي تنسابُ بهدوء - بلملمةِ ما سقطَ عُنوةً على الأرض فتهشم وتناثرَتْ شظاياهُ من صمتِ البَوْحِ.. !! « نظرتُ جيداً، أمعنتُ تأمُّلَهَا وقد بزغَ ظهورُها جليَّاً بينما احتشدتْ في رأسي أسئلةٌ كثيرةٌ عنها..! كانت كبيرةَ الحجمِ ، شاردةَ النظراتِ وتائهةً تبحثُ لها عن ملاذٍ . لونُها أبيضُ داكنٌ مختلطٌ ببقعٍ سوداءَ وتشبهُ إلى حدٍّ ما مثيلاتِها اللاتي يأتينَ متسربلاتٍ بالجوعِ ويقفنَ أمامَ مَقْلَبِ الزبالةِ في أولِ شارعِنَا ولا يتحركنْ ولو قليلاً عن فتافيت البقايا المتناثرةِ إلا أنها كانت معفَّرةً بترابِ الأرضِ وكأنَّما جاءت تركضُ من سفحِ وادٍ موغِلٍ في البعد . رحتُ أتحايل لإبعادها عني ، والفرارُ بنفسي بعيدا عن نظراتها الثاقبة نحوي ،لكنها راحت تلفُّ وتلفُّ ، تدورُ وتنزلِقُ كذكرى على الأسطحِ الملساءِ حولي ثم تتحايلُ مثلي على اختصار مسافاتِ الغضبِ و اتساع رقعةِ التَّدلُّلِ بيننا .عندما لم أستجبْ لنظرة عينيها المشعَّةِ راحت تُظْهِرُلي مخالبَهَا مهدِّدَةً ، بدت لي وهى تلفُّ حولي «لصاً محترفاً» يعرف جيداً كيف يهدِّدُ ضحاياه ويسحق إرادتهم بين خياراتٍ عدَّةٍ.. !

إما بسرقة قطع اللحم التي بأيديهم وتركهم جوعى أو الاستيلاءِ على ما كنزوه سرّاً أو حتى موتهم رُعْباً من خمش أظافرها ...؟؟ هل أقف مكتوفةَ الأيدي..؟؟؟ وهذا اللصُ المتدثرُفي احتمالاتٍ شتَّى يودُّ لو يعرِّيني ممَّا أتدثرُبه من صمتِ البَوْحِ،وانفراجِ حادٍّ لزاوية النهاياتِ المحتملة..؟؟ قررتُ مجابهتَهَا فصنعتُ من نفسي تنّيناً ك«الكومودو»وأظهرتُ لها جسدي المليءَ بالحراشف ومخالبي التي تمزِّقُ اللحمَ فبدوت أمامها عملاقا في فراغٍ سرمديٍّ ورحتُ أقذفُ حممَ النَّارِ من روحي علَّها تحرقها فأستريحُ أشعلتُ ناري فاشتعلت روحي توتراً وتوجساً واحتشاداً. وقفتُ في ثباتٍ أمامها فتحدتني بعينيها ولم تتحرك ربما تراجعتْ للوراءِ قليلاً لكنها احتفظت لنفسها بقدرتها على المواجهة وبينما كنت آملُ كثيراً أنْ يزعجَهَا الضَّجيجُ فتخنس

. راحت تهددني بعنفٍ وجموحٍ وتشعلُ شرارتَها بينما في ذات الوقتِ تملؤني خوفاً من ولوج مناطق مغلقةٍ تماماً ومحرَّمٌ عليَّ وَطْءُ أبوابِها الخشبيةِ القديمةِ والموصدة بقُفلٍ صَدِئ؟؟ تراجعتُ للوراءِ بضعَ خُطواتٍ في محاولةٍ متأرجحةٍ منّي للموائمةِ، للمهادنةِ، للامبالاةِ - لكنها«قطَّتي الِّلصة» ،سرعان ما استرَقَتْ الخطوَ نحوي وانداحتْ على العقل والروح وأمسكت بزمام لحظتنا سوياً. كنت أعرف أنني أستطيع السباحةَ والركضَ بسرعة لكنني أدرك جيداً أنها لمسافاتٍ قصيرةٍ..!!
قالت لي بمكر لا تحاولُ إخفاءَهُ: تعالي معي، هاتِ يدَكِ نقصُّ حكايانا لبعضنا ونهمسُ بأسرارنا للعالم بطريقةٍ مباشرةٍ ودونما تردُّدٍ أجبتُها متوجسةً،علّ جذوتَها تخبو : كفّي عنّي واركضي بعيداً لنْ أستطيعَ معك صبراً أيّتُها «القطةُ- الِّلصةُ» ورحتُ أهشُّها بعيداً لكنَّها أمسكتني بأسنانها الأماميةِ من تلابيبِ عباءَتي وظلَّتْ تَمُوءُ بصوتِها عالياً ، وأخذتني ، سلبتني كلَّ فُرَصِ التَّردُّدِ المواتية واحتمالية التبخر والتلاشي ثم مشت معي في طريقٍ طويلٍ لا أستطيع منه فِكَاكاً ولا أعرف له اتجاهاً.
قالتْ لي : انظري قلتُ ما أنا بناظرةٍ فردَّتْ ناصحةً : استسلمي لغَسَقٍ يجتاحُكِ ،احتشدي لصدْعٍ يبرأُ منكِ فيكِ وألقي بجيشانِكِ على هؤلاء المسحوقين والماكثين دوما في ظلِّ المعابد المقيدةِ بالوجدِ والدَّهشة فأغضضت الطرفَ هدوءاً .راحتْ تزومُ وتتحركُ فَرِحَةً فانصعتُ منقادَةً لحركتها وتفلُّتِهَا. نهضتُ وفتحتُ النوافذَ كلَّها حيثُ رأيتُ أشكالاً متوافقةً ،صُوَراً متنافرةً ، مجسَّماتٍ ذات أبعادٍ ثلاثيةٍ ورباعيةٍ ،وأجساداً ذات طبيعةٍ هلاميةٍ ونتوءاتٍ جارحةٍ ، ذات إيماءاتٍ ساخرةٍ وحكمةٍ بالغةٍ..!
كنتُ أُحِسُّ أنني ألمسُ طيناً أرضياً لزجاً ،وأعبرُ ذاكرةَ الَّلون الأخضر ركضاً، وأذُوبُ في لمسلاتٍ عاتيةٍ القِدَمِ نَدَمَاً، بينما راحتْ هي تموءُ مَوْءَاً متعاقباً متلاحِقاً متتالياً كلذةٍ متهاديةٍ وكأنَّها تؤكدُ لي على مجهولٍ لا أعرفُه قلتُ لها مؤكدةً وقد نفذَ صبري : هل أستطيع معكِ صبراً.. ؟؟
فردَّتْ عليَّ متجهمةً : وهل تستطيعينَ دوني نبضاً وسَفَراً..؟؟
عندئذٍ انحنيتُ قليلاً حتى تقوَّسَ جسدي ورميتُ لها بقطعةِ لحمٍ مشويٍّ كنتُ أحتفظُ بها للعشاء ورحتُ أرجوها قائلةً : اتركيني ، حرِّريني ، دعيني أعدو هاربةً من فوضاكِ المُحتدِمةِ..!
دعيني ، أو دُلِّيني كيف أستطيعُ أن أنفضَ عني احتدامَ الرُّوحِ واحتقانَ الأفكار داخلَ فوضاي ..؟؟؟
أجابتني هازةً ذيلَها وقد أرهفتْ لي نُصْحَاً ..اتبعيني ،اتركيني أكشفُ لكِ الغيبَ وما

لم تعلميهِ ، أعطني الفرصةَ لستطيعي لي صبراً ، واتركي الكلماتِ تنسابُ في لجةِ العشقِ والحنينِ والدهشةِ وارفعي يدَكِ عنها ودعيني أحرّضْكِ خِلْسَةً لتُحَرِّضي العالَمَ جَهْرَاً ولم يَكُنْ أمامي سوى أن استسلمتُ لها و في لحظةِ تَوْقٍ كانتْ قد دخلتني ودخلتُها ، تماهيتُ تماماً مع الِّلصِّ وخفةِ يدَيْهِ العاتيةِ لفتحِ الخزائنِ ، وأحضرتُ لها القلمَ والأوراقَ ونقطةَ بَدْءِ التكوينِ لجسدِ التَّفَكُّكِ..!

حتَّى المقعدَ الخشبيَّ غيرِ المبطنِ والناتئةِ مساميرُهُ في عدَّةِ مواضعَ أحضرتُهُ وجلستُ عليه وأنا أنظرُلها وهى تبادلُني النظراتِ فَرِحَةً مبتهجةً وقد فَتَحَتْ فيما بينَنا كلَّ البواباتِ الَّتي راحتْ تتحركُ في الاتجاهاتِ كلِّها وكأنَّني أقبضُ على ناصيةِ حُلْمٍ أوكأنَّني أصبحتُ راقصةً لرقصةِ الوَجْدِ حيثُ يبدأُ الوجودُ من نقطةٍ وينتهي عند ذاتِ النُّقْطَةِ..!

والقطةُ تدورُ ورائي أدورُ وهى تدورُ أدورُ وهى تدورُ أصنع هالةً وتبادلني آهةً بهالةٍ ووقفةً بوقفةٍ وجِلْسَةً بجِلْسةٍ وموتاً بموتٍ حتى يأخذني الدورانُ ويهلكَني وأهْلَكُ حتى أظفرَ وأرتحلَ بعيداً عن الحائطِ ،الطِّلاءِ المتساقطِ ، الأُطُرِ المتكدسةِ على حوائطِ الذاكرةِ فأجلسُ وقد أصبحتُ كوكباً وأصبحتْ قطتي نجمتي المضيئةَ فلا أُلقِي بالاً لتلكَ المساميرِ المحتشدةِ في مقعدي المتهالِكِ والذي نُزِعَتْ قطيفتُهُ بأيدي المارقينَ الكاتبينَ لرحلةِ وَأْدِ الدهشةِ في كتابِ الحقيقةِ وقَتْلِ التَّخَلُّقِ بالتَّرَدُّدِ المِخْمَلِيِّ . مرتبكةً أروح وأجيءُ، أجلسُ واقفةً ،أُغلِقُ النافذةَ وأَفتحُهَا أُغمضُ عَيْنَيَّ وأملأُ حدقتَيَّ بالمرئياتِ الَّتي تُشِعُّ في لحظةِ الانعتاقِ فأرى السماءَ أفقاً بلا انتهاءٍ، والقمرَ ضياءً ، والنجماتِ مصطفاتٍ ، وراحتْ القطةُ تجرُّ أذيالَ صمتِهَا في أحدِ الأركانِ فهل ماتَتْ قطَّتي وخبَّأَتْ للأبد جذوتَهَا..؟!

جلستُ بمواجهتِهَا وأغمضتُ عينَيَّ ورحتُ أتنفَّسُ بعمقٍ فيأتيني اندفاعُ شلالاتِ الماءِ وأُنصِتُ لهذا الخريرِ الفضيِّ المُثْقَلِ بالوجودِ وطعمِ الوَجْدِ فيطفو على أسطحِ روحي ابتهالُ الحَيَارَى،والعَطْشى،واللَّاجئينَ على الحدودِ بعدما تفتَّتْ أوطانُهم كلُبَابِ الخبزِ الَّلدِنِ . تَتَّقدُ ذاكرتي ، أتشمَّمُ رائحةَ الدُّخَانِ المتصاعدِ من جثثِ الأطفالِ المُحْتَرِقَةِ في الحُروبِ وأتسمَّعُ صوتَ انفجارٍ مدوٍّ لقصفٍ ، تُعْلِنُ الحروبُ المندلعةُ مسئوليتَها التامةَ عنه !! آه يا هذهِ النيرانَ الصديقةَ إلى متى ستبقينَ مشتعلةً..؟؟

أما كفاكِ موتاً وصمتاً مطبِقاً وإغضاءةَ طَرْفٍ عن قتلى ، وحرقِ بلادٍ بأكملِها لأجلِ قتلى آخرين..!!

أين أنتِ أيتُها الحيرةُ- القطَّةُ.. ؟؟

لماذا أصبحتِ صامتةً..؟؟
دخل جسدُك في وَسَنٍ بريءٍ بينما تعصفينَ بلحظَتِي في اتجاهاتٍ عدَّةٍ لتجعليني أتساءلُ ماذا سأكتب.. ؟؟
وأيُّ الأشكالِ ستناسبُ فوضايَ المحرِقة داخلَ لحظتي الآنيةِ وأنا واقفةً على باب الشَّكِ ..؟؟ هل أكتبُ شعراً أدخلُ به أديرةَ الشعراءِ الرُّهْبَانِ.. ؟ فكيف وأنا لا أجيد الوزن ولا القافية..؟
أم أكتبُ قصةً قصيرةً لأعلن بها انضمامي لرعيل المتحققين الموهوبين على الصعيدين الرَّمزي والواقعي ..؟ أم تُراني سأَبْدَأُ أوَّلَ فصلٍ في روايةٍ أُعَرِّجُ فيها على كلِّ الأطيافِ وأناوئُ فيها شتى المذاهب بطريقة غزلي.. ؟؟
حبَّذا لو تكلمتُ في الفصل قبل الأخير على لسانِ البطل بطريقةٍ (أيروسية) قليلا واستشهدتُ على الفعلِ بين الحينِ والحينِ بمقولةٍ مشهورةٍ لأحدِ الرُّواة القُدَامَى من تاريخِنَا الماكث..؟؟ ليتني ألومُ الضَّحَايا على وضاعتِهم واستكانتِهم ، هل أستطيع أن أتجرأ ولو قليلاً فأسبُّ ربَّهم الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من إرهاب ..!؟ عن ماذا سأكتبُ دُلِّيني يا قطتي النائمة.. ؟؟ وكيف سأكتبُ ولمن سأكتبُ ومن سيقرأُ وبداخلي ترقد قطتي المتيقظةُ المتنمرةُ على طاولة الفيضانِ..والاحتشادِ..!
؟ هل أكتب عن الحبِّ أم الحربِ ، أم أمتدحُ الواقعَ العربيَّ المجيدَ..!! جلستُ مجهدَةً- بينما رأيتُها في موقفِ الوقفِ، انتشتْ فَرِحَةً محرِّكةً ذيلَها - أحضرتُ لها طَبَقا به بقايا لحمٍ مشويٍّ ورحتُ أرمي قطعةً بيدي على أقصى اتساعها فتجري القطةُ -- أمامي تُرتِّب الفوضى وتناوشُ الحدودَ وتشعلُ النارفي خمود الحريق فاحتشدَتِ الأوراقُ بما لا تطيقُ وخرجَتْ من هلاميتها كلُّ الصورِ المرتبكةِ ،وكلُّ الصور التي تلعنُ سفسطةَ الواقعِ والحُلمِ المستحيلِ .. وإدانةَ القططِ السِّمانِ اللَّاتي يأتين لسرقةِ رغيفَ خبزِ البُسَطَاءِ المقهورين.. !!
حين هُيِّئَ لي أني أتممت طريقي رأيتُها وقد هدأَتْ كثيراً وبدأت في التثاؤب أنامت حقا هذه المرة ..؟؟
خَفَتَ لهيبُ موائِها وانزوتْ بعيداً رُحْتُ أقرأُ ما جاء على لسانِ البَطَلِ -فارتعدتُ خوفاً وتساءلتُ ماذا لو جاءوا إليَّ صباحاً وعذَّبُوني بعدما فضحتُ الصَّمْتَ المداهنَ،والانفعالَ الخائنَ لكلِّ قططِ العالم السِّمان..؟ عندها تذكَّرْتُ أنَّ هَزْهَزَةَ القطةِ لذيلِها شغلتني وأربكتني فلم أُحْضِرْمع الأوراق والأقلام ممحاةً فرحتُ أبحثُ عن ممحاةٍ قديمةٍ في أحدِ الأدراج السفليةِ لأزيلَ كلَّ تلكَ التَّرَهُلاتِ اللُّغوية لتبقى قصةُ الأوراقِ ناصعةً ، فلا تتدَنَّسُ بمحاولاتٍ يائسةٍ، ونهاياتٍ مبهمةٍ ، وحريقٍ ليس

كافياً لانتفاضةٍ فجثمتُ على ركبتَيَّ وأمسكتُ المحاةَ لكنها جاءتني على حينِ غفلةٍ وراحت تخمشُ أظافرها في وجهي ويدي ولم تكنْ لديَّ فرصةٌ لأزيل التقاطعات أو أمحو المواءمات فما كتبتهُ لم يكنْ سوى خليطٍ غيرِ مُتَّسِقٍ تنامُ فيه الشخوصُ غيرَ واعيةٍ للحدَثِ، وتفقدُ فيه القافيةُ لعنتَها الغافيةَ ، ويبدو فيه التاريخُ فضفاضاً والجغرافيا مُتَرَنِّحَةً. فلم أستطعْ محوَ كلّ الذي كتبتُ غيرِ محزونٍ عليه ووجدتُني أمامها وقدْ هَدَأَتْ تماماً لا تستبينُ حركةً... فهل ماتَتْ قِطَّتي..؟؟

مددتُ يَدِيَ لأُحَرِّكَهَا فوجدتُها تنظرُلي مليَّاً وعلى حينِ غفلةٍ منّي غرزتْ أظافرَها في لحمي وراحتْ تقتاتُ منه وكنت أراها وهي تقضمُ بأسنانِها من روحي فينفصلُ جزئي عن كلّي ويبتعدُ كلّي في مسافاتٍ متقاطعةٍ عن بعضي بينما لم تعْطِني هدأةَ النِّهاية ولا فَرْحَةَ الدَّهْشَةِ بل فَتَحَتْ جُبَّ الأسئلةِ المغايرةِ ولم أُفِقْ إلا على سيل الدماءِ من رأسي إلى أسفلِ ساقي ، كانتْ دماءً ناعمةً، لزِجَةً، وتسيلُ بهدوءٍ ورويَّةٍ وأدخلتْني لزوجةُ الخيطِ الأحمرِ المُنسابِ في تماسكِ الأسئلةِ بعضها ببعضٍ مستفهمةً عن كل هذا العددِ من المساميرِ الملتويةِ الرعناءِ،والناتئةِ كيف نسيتُها حتى استطاعت أن تخترقَ جسدي دونَ أن أشعربها فأحدثَتْ به كلَّ هذا النزيفِ الصَّامِتِ مُنَحِيَّةً اللغةَ- المستريبةَ - جانباً – عن أُفُقِ الحَكْيِ- المخملي لتظلَّ قطتي تموءُ وتموءُ دونما هوادةٍ وتومِئُ لي بإيماءاتٍ كترنُّحِ الرَّاقِصِ في هالاتِ الكونِ المضيء والانسيابات البنفسجيةِ لنقطةِ بَدْءِ التَّخَلُّقِ العَصِيَّةِ.. !!

كراميل

سأصنعُ (الكراميل) قالتْها ربَّما لثالثِ أو لرابعِ مرَّةٍ وفي كلِّ مرَّةٍ لا تجد من يردُّ عليها فتصمتُ، تُلَمْلِمُ صمتَها كتلةً مغلَّفةً باستفهاماتٍ عدَّةٍ و تتلهى بمتابعةِ الحلَقةِ المُعَادَةِ ربَما للمرَّةِ العاشرةِ من المسلسل التليفزيونيّ . عادتْ تردّدُ كلمتَها سأصنع لكم (كراميل) فأجابتْها أمُّها مُطْرِقَةً « حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ « بينما راح أبوها ينظرُ إلى ساعتِهِ ويُرْدِفُ قائلاً : حان وقتُ وصولِهم سأنتظرُهُمْ أمام البابِ . خَطَتْ مُسْرِعَةً ،ارتدَت مَرْيَلة المطبخِ وراحتْ تبحثُ عن (حَلَّةٍ) ذاتِ جُدرانٍ عاليةٍ تَحمي يدَيْها من تَقَاذُفِ السَّائِلِ حين يصلُ لدرجةِ الغَلَيَانِ . تَسَمَّعَتْ تحتَ البيتِ هَمْهَمَةَ رجالٍ كُثُرٍ فخفَقَ قلبُها حين أدركتْ قدومَهم ووقوفَهم متصايحينَ ومنادينَ أمامَ البابِ. سكَبَتِ السُّكَرَ في الإناء بهدوءٍ ودون أن تضيفَ له شيئاً وضعتْهُ على النَّارِ،بدأَتْ تقلّبُ بملعقتِها الخشبيةِ بينَمَا يتزايدُ خَفْقُ قلبِهَا بأنينٍ مكتومٍ راحتْ ذَرَّاتُ السُّكَرِ تلاعبُها وتراوغُها، تنصهرُ وتتمركزُ ، تنداحُ على سطحِ القاعِ وتَتَمدَّدُ ثم تعودُ وتتلملمُ وكأنَّمَا تُشَاكِسُهَا وعلى حينِ غَفْلَةٍ منها تتجمَّعُ قُرْبَ ناحيةٍ بينما تبحثُ هي عنْهَا وتَتْبَعُهَا ثُمَّ تعاودُ تَفْرِيقَهَا ونشْرِهَا بملعقتِهَا في كافَّةِ الأرجاء..!

جعلتُ النارَ هادئةً للغايةِ ، ووضعتُ طبقةً من الصَّفِيحِ العَازِلِ تحتَ (الحَلَّةِ) حتى لا تصبحُ ألسنةِ النَّارِ مباشَرَةً فيحترقُ السُّكَرُ. سَمِعْتُ صَوْتَ ارتطامٍ عنيفٍ فأَسْرَعْتُ ووقَفْتُ خَلْفَ النَّافِذَةِ : كان العُمَّالُ يُنْزِلُون الحاجيات التي أرسلها إليها -طليقُها - وعندما حاولوا إدخال فراشِها ارتطمتْ حافتُه في الحائطِ فانشرخ الحائطُ بشرخٍ طولي وسَقَطَ الفِراشُ على الأرض . : حاذرْ.. حاذرْ سمعتُهَا من أبيها وهو يُوصي العاملَ الَّذي كان ممسكاً ببعضِ الأشياءِ الأخرى ..!

عندها تذكَّرَتْ (الكراميل) فعادتْ مسرعةً بينما إحساسٌ عنيفٌ قد اجتاحها وهي تنظر إلى جسدِهَا صامتاً مستسلماً تماماً لا يُبدي حركةً بجانب ألسنةِ النار فازداد أنينُها حتَّى وصلَ لشاطئِ البُكَاءِ فاستقرَّ مُجْهَداً .. رأَتْ نفسَها وقد تعرَّى جسدُها تماماً حتى مِن وَرَقَةِ التُّوتِ تقفُ أمامَ لظى نارٍ تكويها دونَ هَوَادَةٍ.. ؟؟

ولا تُلقي بالاً لروحِها..!

اجتاحتْها استفهاماتٌ وتملَّكَهَا شَكٌّ قويٌّ وهي تسألُ نفسَهَا أهكذا كان الحبُّ وكانتِ الأُلفةُ هل تسرَّعْتُ في اتخاذ قراري بالانفصالِ عنهُ..؟؟ هل هَدَمْتُ بيتي

ليس لأسبابٍ متعددةٍ ولكنْ لسببٍ واحدٍ فقط وهو تيقُّني بأنه استطاع أن يُحِيلَ جسدي إلى قطعةٍ مطاطيةٍ داكنةِ اللَّوْنِ ؟؟ اِغْمَقَّ لونُ السُّكرِ كثيراً فرفعتْ الإناءَ بسرعةٍ عن النارِوصَبَّتْ عليه الماءَ مرَّةً واحدةً فتكلَّسَ وأصبحَ كتلةً صَخْرِيَّةً فاقدةً للمرونةِ راحتْ تَدُقُّ عليها بملعقتِها الخشبيةِ ،تحركُهَا بحركاتٍ دائريةٍ بينما في لحظاتٍ أخرى تضربُ عليها بقوةٍ وعنفٍ حتى ذابَتْ جوانبُهَا تدريجياً وعادَتْ مرَّةً أخرى سائلاً مطاطياً ملتوياً عند القاعِ .. عندئذٍ أضافت إليه ملعقتين من الزُّبْدِ وتركتْهُ ليهدأ . كانت تُحِسُّ بمرورِ الوقتِ أنها فقدَتْ شيئاً ثميناً تودُّ استعادتُه فلا تستطيعُ ، تملكتْهَا مرارةُ واقعٍ يواجهُهَا بأنَّها لا تملكُ جسدَهَا ولا ملابسَهَا ولا حتَّى فِرَاشَها وأنَّها مُجَرَّدُ دميةٍ لِلَّعِبِ في يَدِ صاحِبَهَا .. تاهتْ في طُرُقَاتِ البحثِ عن مواطنِ بهجتِهَا ورغبتِها معهُ ،و اجتاحَهَا إحساسٌ عارمٌ بأنها لا تملكُ رأسَها ولا شفتَيْهَا ولا حتَّى ساقَيْهَا وأصبح الإذعانُ والطاعةُ وجهَيْنِ لداءٍ أنهكَ جسدَها وأدمى ذاتَها فكيفَ لها أن تعيشَ وهى لا تملكُ ذاتَها وجسَدَهَا ؟؟

حاولتْ كثيراً الاقترابَ منه ،فهمه ، البحثِ عن لحظتِهمَا المشتركةِ. حاولتْ أن تجعلَهُ يدخلُ عالَمَها ورغّبتْهُ في عالمِهَا المنتظرِلهمْسِهِ وأتعبتْها كثيراً أمنياتُها المَوْؤُودَةُ بأَنْ يبنيَ لها جسراً وطرقاتٍ جانبيةٍ تَظلُّ تخطوتعدووتركضُ حتى تصلَ إلي حافَّةِ البحرِ ضاحكةً لاهثةً بينما رذاذُ الموج يُغْرِقُهَا بالشَّوْقِ لكنَّهُ كان لا مبالياً,صَلْدَاً ، لا وقتَ لديه سوى أن يُعلنَ أمام وجهِهَا بنوداً عِدَّةً لمعاهداتِ الرُّضُوخِ والطاعةِ أوقعتْهَا لامبالاتُه في بئرٍعميقٍ ، في قعرِه كانتْ تتحركُ فكرةٌ واحدةٌ لا تتلألَأُ إلَّا بدُكْنَةٍ بأنَّها تمارسُ إباحية نَهِمَةً، أجهدتْها كثيراً وأفقدتْها كبرياءَها، وأورثتها وجعاً مسيطراً وتسرَّب حُلمٌ بسيطٌ من يدَيْهَا بأنْ يختارا الوقتَ سويَّاً، الحُلْمَ سويَّاً ، التَّمَدُّدَ في الفراشِ سوياً وإشعالِ الشموعَ في لحظةِ نَزَقٍ واحدةٍ لكنَّه كان سيدَ الاختيار الأوحد- بلا منازعةٍ «هل تصرّينَ على الطلاقِ لأنه يرغبُك ؟؟ « قالتها في نفسِها كثيراً مثلمَا همسوا بها في أذنها لكنَّها أجابتهم مصرةً وباكيةً : بَلْ أرغبُ في الحفاظ على ذاتي .. فعندما نصلُ إلى النقطةِ الأخيرةِ حيثُ لا تكونُ هناكَ محاولاتٌ ولا فرصٌ أخرى بعدها حيثُ ترسَّخَ بداخلي إحساسٌ بأنَّه يمتهِنُني ، يكسِرُنِيْ إرادتي ، ورغبتي ومواطن بهجتي ويُحيلُ الألوانَ إلى لونٍ داكنٍ لا يصبحُ لدَيَّ اختياراتٌ أخرى ، أنه لا يعي حين يجردني من إرادتي للرفض أو القبول أصبح إحدى أدوات التواطُؤ على نفسي وعندها لابدَّ لي وقبلَ الموتِ بخطوةٍ أن انتصرَ لنفسي ....!

سمعتْ صوتَ أبيها مُنادياً : أحضروا الشايَ للعُمَّال فأجابته وهى تمسح دمعةً سائلةً بهدوءٍ على خدِّها التي زادتْهُ السخونةُ احمراراً : حاضر تنهَّدَتْ حين تذكَّرتْ

كَمْ حاضرٍ قالتْهَا لَهُ ، كمْ مرَّةٍ لجَّمَتْ فيها جِماحَ رفضها له، كم مرةٍ حاولتْ أن تجعلَه يعيشُ لحظتَهُما معا يصنعانِها سويَّاً ويفرحانِ فيها سويَّاً لكنَّه غيرُ آبِهٍ بَدَأَ يضربُها،ويتَّهِمُهَا بالتمرُّدِ والنُّشُوزِ كانتْ تسألُ نفسَهَا دوماً : كانتْ أحلامي بسيطةً للغايةِ لم أكنْ أريدُ سوى أن أعيش معه.. !

لكنه رفضَ أنْ يتنازلَ طواعيةً عن ذاتِهِ النَّهِمَةِ وأنانيَّتِهِ المفرطةِ و أعلن لها أنْ لا وقت لديه لكل ما تَهذي به ولا يفهمُ كثيراً معنى أن يُخَطِّطَا ليعيشا سوياً فرحَيْنِ داخل جسديهما .. كم كانتْ تَوَدُّ لو ترفرفُ وتحلّقُ كعصفورٍ في أفقه بين ربوع أحضانه متدثِّرَةً بدقاتِ قلبِهِ وواضعةً صدرَها على هَدْأَةِ بَوْحِهِ لكنَّهُ ما كانَ يريدُ سوى طواعيةِ الصَّلْصَالِ الَّلدِنِ. علا صفيرُ صانعةِ الشَّاي فَفَتَحَتِ الغطاءَ قليلاً وصبَّتِ الماءَ المغليَّ على أوراقِ الشاي جاءَتْها أُمُّها باكيةً لتأخذَ منها (الصينية) وعليها الأكوابُ مضَتِ الأُمُّ صامتةً بينما راحتْ هي تناديها عندما فطِنَتْ أنَّ أمَّها نسيَتْ أنْ تأخذَ معها قطعَ السُّكَرِ عادَتْ إلى ما كانت تصنعُهُ وقد هدأ قليلاً . تذكَّرَتْ أنَها لم تضع (الفانيليا) فبحثَتْ عن العُلْبَةِ الصغيرةِ ،وجدتْهَا مختبئةً في أحد أدراجِ المطبخِ السُّفْلِيَةِ ففتحتْها وراحتْ تتأكَّدُ من مُدَّةِ صلاحيتها للاستعمال . أمسكتْ (حَلَّةَ) السُّكَّر وكأنَّها ملاذُها الأخيرُ ووضعتْها مرَّةً أخرى على النارِ ثم صبَّتْ عليها ملعقتَيْنِ من النَّشَا ، لبنَ البَوْدَرِ، وبعضاً من الماءِ مرَّةً أُخرى عاوَدَتْ التقليبَ بينما علا صوتُ أبيها وهو يغلقُ البابَ مُوَدِّعَاً العمالَ نزلَتْ إليه لأخذِ الأكوابِ فوجدَتْ واحداً من العُمَّالِ يتسلَّمُ منه بعضَ النقودِ سألتِ الرَّجُلَ عمَّا بيده فحكى لها عن ابنته التي تجيدُ الرَّسْمَ و تُصِرُّ على أنْ يشتريَ لها الكراساتِ ، وهي غاليةُ الثَّمَنِ كثيراً لكنَّهُ لا يريدُ أن يغضبَهَا وراح يُسْهِبُ في وصفِ رَسْمِ ابنتِهِ للحمَامَاتِ ،والعصافيرِ والسحاباتِ البيضاءِ والشَّمْس . راحَ يُعِدُّ النقودَ التي زادَهُ أبوها إياهُ فَرِحَاً ومُمْتَنَاً وداعياً لها بالفرحِ وبينما أبوها يُغْلِقَ البابَ ويتأكدُ من غلقِهِ جيَّداً كانتْ هي قد غافلتْهُ وراحتْ مسرعةً تبحثُ عن الشراشف الَّتي كانتْ على الفراشِ ونسيَ طليقُها تماماً أن يرسلَهَا إليها - مع بعض الحاجيات.!

تَشَابُكٌ

طالَ انتظاري لحديثِهِمَا - بينما كانت نظراتُهما تعبرُاني خلسةً وتتوقف كثيراً عند تفاصيل الحُجْرةِ ، ملفاتِ القضايا المكدَّسةِ ، مكتبتي الممتلئةِ بكتبِ القانون، ورُقعةِ (الشطرنج) الزجاجيَّةِ المستقرَّةِ على المِنْضَدَةِ وعليها الأحصنةُ كلٌ في مكانِهِ يَصْهِلُ حيناً ويجلجلُ في أحيانٍ أُخرى . . رحتُ أتأمَّلُ وجهيهِمَا، الأُمُّ وبرفقتِهَا ابنتُها النحيلةُ والبادي شحوبُها كثيراً ثم أَرْدَفَتْ : خيراً يا أمي أنا تحت أمرِكِ.. !!

استقرتْ نظراتُ عَيْنَيْ الأمِّ على المربعاتِ كانت إحداهما زجاجاً لامعاً كمرآةٍ بينما الأخرى زجاجٌ مصقولٌ كعتمةٍ غافيةٍ : خيراً يا أستاذة نريد أنْ «نخلعَها « من زوجها وأشارت إلي ابنتها التي برفقتِهَا : متى كان الزواج ..؟؟

.منذُ ثلاثةِ أشهرٍ وعَشْرةِ أيامٍ : إذن نعطيهم فرصةً أخرى ، السنةُ الأولى صعبةٌ كثيراً على الولد والبنت.. !!

لكنها لم تلتفتْ لكلامي بينما ظلَّتْ مثبتةً عينَيْهَا على الحِصانَيْنِ وكأنَّما تريدُ أن تختارَ إحداهُما . كنتُ دائماً ما أُعطي الحِصانَ اللَّامعَ لموكِّلي بينما يتبقى لي الحصانُ الزُّجَاجِيُّ المصنفر . مضَتْ برهةُ صمتٍ ثم فاجأتني بوقفتِها وعصبيتِها المُفْرِطَةِ : إنْ كنتِ لا تريدينَ القضيَّةَ فسأذهبُ بها إلى محامٍ آخرَ فقضايا الخُلع مضمونةٌ والنَّصيبُ قد انتهى . راوغتْني المرأةُ رغم بساطتِها وعفويتِها البادِيتَيْنِ وهزمتْني تلقائيةُ الحصانِ اللَّامعِ عن معرفةِ أيَّةِ تفاصيلَ أخرى . ورفعتُ القضيةَ عن موكِّلتي ، هذه الصَّمُوْتِ ذاتِ الحاجبَيْنِ الكثيفَيْنِ ، والشَّفَتَيْنِ المُكْتَنِزَتَيْنِ بطُعُومِ الغوايةِ المختلفةِ وذاتِ السِّلْسِلَةِ الرَّقِيقةِ حَوْلَ رقبتِها والتي يَتَدلَّى منها أولُ حرفٍ لاسمِ زوجِها.. !!

في ردهاتِ المحكمةِ ، وبين الجِلْسَاتِ كنتُ أحاولُ سَبْرَ أغوارِ الصَّغِيرَةِ لكنَّ الأمَّ كانتْ تقفُ لي بالمرصادِ مصرَّةً على إتمامِ الطَّلاقِ ، وكُلَّما وجَّهْتُ سؤالاً للابنةِ كانتْ تلوذُ بالصَّمْتِ وتحتَمِي بذراعِ أمِّهَا كطفلٍ صغيرٍ يخافُ بشدَّةٍ عبورَ الطَّرِيقِ بمفردِهِ..!!

استدعتِ المحكمةُ الابنةَ لتستَوْثِقَ منها فأجابتْ بصدقٍ عن كلِّ الأسئلةِ الموجهةِ إليها وأفادت وهي مطرقةٌ بينما كانَ لعابُها يسيلُ على جانبِ شفتَيْهَا وتروحُ تمسحُهُ بمنديلِها الوَرْدِيِّ

: بأنَّهُ كانَ كريماً جدَّاً معها يُنْفِقُ عليها مَأْكَلاً ومَشْرَباً وكُسْوَةً ولم يقصِّرْ في حقوقِها

الشَّرعِيَّةِ كزوجةٍ ، وكانَ يُحْسِنُ معاشَرَتَها ويخافُ عليها، وعندما سألها القاضي لماذا تُصِرّينَ على الطلاق : أطرقَتْ قائلةً وقد تحجَّرَتْ دموعُها : ليس بيدي إنني أبغضُهُ كُرْهَاً.. !

وَحُجِزَتِ القضيةُ للنطقِ بالحُكمِ لكنَّ إحساساً غريباً تملَّكني بأنَّني ما كنتُ سوى بيدقٍ صغيرٍ تحركهُ المرأةُ بمنتهى الدهاءِ على مربَّعٍ زجاجيٍّ مُصنفرٍ. أمضيتُ لياليَ كثيرةً ناوشتْني فيها الأسئلةُ كنَارٍ متأرجحَةٍ عن السِّرّ الكامنِ وراءَهُمَا وعن إصرارِ الأمّ على تطليقِ ابنتها دون شكوى أو حزنٍ أو حتى مجردِ البحثِ عن طاقةٍ تتسرَّبُ من خلالِها احتمالاتُ للصُّلْحِ مثلَ كلِّ القضايا المشابهةِ لحالتِها. نظرتُ للعساكر وقد تحركوا من أماكنهم ووقفوا جميعاً في نفسِ الرُّقَعِ اللَّامِعَةِ فطَفَتْ على وجهي ابتسامةٌ مباغتةٌ كومضٍ فهاتفتهما ليأتيا إلى مكتبي لأمرٍ ضروريٍّ وحتميٍّ وسيؤَثِّرُ كثيراً على سيرِ القضيةِ..!!

استفزَّني صمتُهُمَا المعتادُ ففاجأتُ الصغيرةَ بسهمٍ أصاب هدفَهُ بدقَّةٍ : أنتِ حامِلٌ أليس كذلك..؟

فأَوْمأتْ بنعمٍ دونَ تفكيرٍ بينما انتفضَتِ الأمُّ وقد بدا أنَّها هَزَأَتْ باللُّعْبَةِ كلِّهَا مَنْ أدراكِ.. ؟ مَنْ قال لكِ.. ؟؟ لكنَّ هذا لن يؤثرَ في القضيَّةِ .. كانت الأمُّ تردُّ منفعلةً ، تلعثمتْ كثيراً ثم انتفضتْ ودخلتْ في بكاءٍ عنيفٍ طلبَتُ الانفرادَ بالأمِّ ، وأخرجتُ الصغيرةَ التي زاد ارتباكُها ، وطفقَتْ تمسحُ دموعَهَا وقد بدا عليها الإرهاقُ الشديدُ كفكفتْ الأمُّ دموعَها لكنَّها لاذت بالصمتِ وكأنَّما استدركتْ أن عليها أن تمضيَ في رحلةِ كتمانِهَا للنهايةِ كنتُ كمَن أُوحِيَ إليه بفكرةٍ بعيدةٍ .. كَحَدْسِ تحريكِ الوزير بنقلةٍ فجائيةٍ وسألتُها وقد ثبَّتُّ عَيْنَيَّ في عينَيْهَا : مَن السببُ في ورطةِ ابنتِكِ.. ؟

لكنها صمتَتْ كعادتِها وطالَ صمتُها فقمتُ غاضبةً وقد أعطيتُها ظهري ولملمتُ كلَّ القطعِ المنتصبةِ وجمَّعْتُها في كيسٍ ملقىً على جانبِ المقعد قائلةً : القضيةُ وقد حُجِزَتْ للحكم ،وأنا لن أبوح بشيءٍ فاصدقيني.. مَن كانَ السببُ في ورطتِهَا.. ؟؟ هل هو رجلٌ غريبٌ .. كانتْ تحبُّه قبل الزواج..؟ هل هناكَ من اعتدى عليها ..؟؟ هل هو أخو زوجها ..؟؟ أجابتني بتلقائية لا تتصنَّعُها : لا.. لا ليس هو إن أخاه شابٌ طيِّبٌ كان دائماً ما يربتُ على كتفَيْها ويقول لها أنتِ مثل أختي التي لم تنجبْها المرحومةُ أمي ودائماً ما يأتي لها بكلِّ ما تحتاجُهُ وتسارعتْ دقاتُ قلبي حين رأيتُ الملكَ قد أصبحَ وحيداً عارياً ومنكَبّاً على ذاتِهِ بينما انقضَّتْ عليه جوانبُ الكيسِ المهترئةِ من كافَّةِ الجوانبِ وسلبتْهُ أسلحتَهُ كلَّها لتسقطَهُ..!

أكدْتُ على سؤالي دون أنْ انتظرَ منها الإجابةَ : لآخر مرَّةٍ أسألكِ مَنْ .. ؟؟ مَن الَّذي

كانت لديه مفاتيحُ الحُجُرَاتِ كلِّها..؟؟
مَن الذي كان لديه رغبةُ التهامِ الطَّعامِ كُلِّهِ ..؟؟
ومن الذي كانتْ تَنْهَشُهُ الغَيْرَةُ وتفتِكُ به فينسى أبوَّتَه لابنه حين يراهُ مع زوجتِه يضحكانِ سويَّاً أو يجلسانِ سويَّاً أو حتَّى حينَ يتلصَّصُ عليهما من ثقب المفتاح حين يمتزجانِ ..!؟
فأجابتني : بنعمٍ واضحةٍ دونَ التباسٍ وأيضاً دونَ أنْ تنطقَ بها وأطرقَتْ يائسةً بينما عيونُها تملؤُهَا الدُّموعُ كبركانٍ ثم تفيضُ فتحيلُ وجهَهَا كزجاجٍ مصنفرٍ ولامعٍ في آنٍ واحدٍ . ووقفتُ أمامَ القاضي وقد أخذتُ المرأَتَيْنِ تحتَ جناحَيَّ، ولم يكنْ ذلكَ لأربحَ شيئاً بقدرِما كان لرغبتي العنيفةِ لِأَنْ ننتصرَ سويَّاً ولَمْ أشترِكْ مَعَهُمَا لإسدالِ الستائرِ، بلْ فتحتُ النوافذَ للمَدَى المعتمِ ورفعتُ صوتِيَ عالياً وواضحاً لا لَبْسَ فيه ودونَ موارَبَةٍ أو خَجَلٍ : سيّدي القَاضي : لابُدَّ أَنْ نُخْضِعَ الجنينَ لاختباراتِ ال (DNA)وأَنْ نُعِيدَ الاستماعَ جيّدَاً وبالتفصيلِ الدَّقِيقِ لأقوالِ الشُّهودِ في الواقعةِ وأنْ نقدِّمَ الجَانِي للعدالةِ حتَّى وإنْ تنازلَتِ الأطرافُ جميعُهُم عن حقوقِهِمُ القانونيَّةِ .!

رَفْضٌ

إلى «اليس مونرو»
«تلك التي بعثرتْ الشَّجَنَ نُتَفاً في أروقةِ الحكايا فمَن يدري ربَّما يصلُكِ إهدائي يوماً»
(اُتْرُكُوا نُوْرَ لِبَعْضِ شَأْنِهَا واذْهَبُوا أَنْتُمْ لِحَفْلِكُمْ)

رفضتُ – كعادتي - الخروجَ برفقَتِهِمْ ، تعلَّلْتُ ببعضِ أشياءٍ لابُدَّ من الانتهاءِ مِنْها ، هَمَسَتْ زوجةُ أخي في أُذُني : لا تنسَي .. أَوْمَأْتُ ضاحكةً : لا تَخَافِي .
خرجُوا جميعاً ، أُمِّي ، أُخْتِي ، أَخَوَايَ ، زوجةُ أخي الأكبرِ ليَحْضُرُوا جميعُهُم احتفالاً بليلةِ رأسِ السنةِ بينما ظللتُ ماكثةً في البيتِ لا أبرحُهُ. كانَ عَلَيَّ أنْ أُنَظِّفَ الحائطَ الثالثَ من غُرفتي ، كَيَّ قميصينِ لأخي الأصغرِ، كما كانَ عَلَيَّ تثبيتُ حمَّالةِ القميصِ الَّذي أوصتْني به زوجةُ أخي ، ترتيبُ المساندِ ، غَلْيُ اللَّبَنِ ، وضعُ البطاطا في الفُرْنِ وأيضاً كنسُ الرَّدْهَةِ ومسحُ شاشةِ التلفازِ من التراب ، كلُّ هذه الأشياءِ كان عَلَيَّ الانتهاءُ منها قُبَيْلَ عودَتِهِمْ .لأيامٍ بعيدةٍ وأنا أكرِّرُ فعلَ ذلكَ ، تحديداً منذ أربعةِ عشرعاماً، منذُ تلكَ الأيامِ التي وَقَعَتْ فيها حادثةُ اغتصابي علي مرأى ومسمعٍ من الجميع . تملَّكَني الصَّمْتُ واجتهدتُ لانجازِ أعمالِ البيتِ التي لَمْ يطلبْهَا أحدٌ مِنّي ، لكنني كنتُ أهرعُ من تلقاءِ نفسي إلى فعلِهَا ربَّما حاولتُ جاهدةً وقتَهَا أنْ أُوْغِلَ في الصَّمْتِ المُطْبِقِ بينما يدايَ تجتهدانِ أنْ تُنْجِزَشيئاً لعلَّني أُكَفِّرُبه عنْ خطيئتي . .
ولم أكنْ بصمتي أَتَسَتَّرُعلى رجُلٍ أحببتُه أووَثِقْتُ كثيراً بكذبِهِ، بقدرِ ما كان صمتي إذعاناً تاماً لسلطةٍ هوجاءَ اقتلعتْني كريحٍ عاتيةٍ ، قذفتْني في الهواءِ كريشةٍ ثمَّ طَوَّحَتْ بأحلامي دونَ رَجْعَةٍ ،جرفتْ كلَّ المعاني والأمنياتِ التي أورقَتْ كبراعم صغيرةٍ بداخلي بينما تركتْني أنتفضُ هذياناً من هَوْلِ طُغيانِها .. ظلَّتْ تفاصيلُ ذلك اليومِ شاخصةً أمامي لا تبارحُني كان هذا يومُ السَّابع عشرَمن نوفمبر، وقتَها كنتُ طالبةً جامعيةً في السنةِ الثالثةِ بكليةِ الآدابِ قسمِ اللغةِ العربيةِ، أُعَلِّمُ

الأطفالِ الصِّغارَ نطقَ الحروفِ الأبجديَّةِ ،وأهوى كثيراً شُغْلَ الحِيَاكَةِ .
حدثَتْ الواقعةُ بينما كنتُ في طريقِ عودتي إلى البيت بعدما أنهيتُ محاضراتي، كنتُ ممسكةً بأكياسِ البطاطسِ والبصلِ الَّتي اشتريتُها لأمّي ، أذكرُ جيداً أنَّني كنتُ أضع على جفوني ظِلاً مخملياً بلونٍ أزرق ، و أرتدي سُتْرَةً زرقاءَ بينما تختبئ بقعرِ حقيبتي نسخةٌ ورقيَّةٌ رخيصةٌ من رواية» التَّحَوُّلِ» كنتُ قد اشتريتُها مما ادخرته مِن مصروفي ... وعند مروري بأحدِ الشَّوَارعِ الضيقةِ هَجَمَ عليَّ أحدهُم من الخلفِ وغَرَزَ نَصْلَ السكينَ الحَادَّ في أوردةِ رقبتي ثم ساقَني كما تُسَاقُ البهائمُ إلى حتفِهَا !! :»لَنْ نسكتَ» هكذا قالها أبي الذي أَحْنَتِ الواقعةُ رأسَهُ فتحوَّل كَهْلاً ثُمَّ ماتَ غمَّاً ،وأمّي الَّتي فارقتْهَا البسمةُ إلى غيرِ رَجْعَةٍ ، وأَخَوَايَ اللَّذانِ أُصِيبَ كلاهُمَا – بالَّلعْثَمَةِ وأصبحا لا ينطقانِ بجملةٍ واحدةٍ دونَ ارتباكٍ أوتخبُّطٍ ...!
ووكَّلْنَا محامياً بارعاً للغايةِ لكنَّهُ جاءَنَا صبيحةَ يومٍ غائمٍ لعقدِ صفقةٍ أنجو فيها بحياتي وحياةِ أسرتي فقد كان مَن قام بالاعتداء علىَّ ابناً مدلَّلاً لواحدٍ من رجالِ الاقتصاد الكِبار جداً – حُوتَاً ضَخْمَاً – كما كانوا يطلقونَ عليهم في صحافتِنا وأنَّهُ قد جاءَ بالقربِ من حَيِّنَا مع أحدِ أصدقائِهِ طَلَبَاً لبعضِ الموادِّ المخدرةِ الَّتي كانَ يتَعاطَاها..!
أُسْقِطَ في يدِ المحامي، في يَدي، في يَدِ أسرتي فَرْدَاً فَرْدَاً ولَمْ نستطعْ لأنفسِنَا شيئاً ، وانتهتِ القضيةُ باتِّهَامٍ لُفَّ كحبلٍ مجدولٍ بدقَّةٍ حَوْلَ رقَبتي ،وإثباتَاتٌ شَتَّى بشهودٍ ثِقَاتٍ بأنَّني ما كنتُ سوى داعِرَةٍ مارستُ ذلكَ مَعَ عِدَّةِ أشخاصٍ آخرين..!
وَخَرَجَ – هَاتِكُ عِرْضِي - بريئاً تماماً ، مُهَلَّلاً،وراقِصَاً ومكثتُ في البيتِ ، اجترتُ مراحلَ عِدَّةٍ مِنْ»متلازِمَةِ صَدْمَةِ الاغتصابِ» بدءاً مِن المَرْحَلَةِ الحادَّةِ من القَيْءِ والغثيانِ والقلقِ والارتعاشِ والإحساسِ العنيفِ بالقذارةِ إلى الخوفِ والهلعِ والحَيْرَةِ والانفجارِ المباغتِ في البكاءِ حتَّى مرحلةِ التكيفِ التامِّ مع أحاسيسي الداخليةِ لِمَا حَدَثَ ، ظللتُ أتأرجحُ ما بين الكراهيةِ ورغبةٍ جارفةٍ في الانتقامِ إلى أنْ هَدَأْتُ تماماً أوْ هكذا أقنعتُ كلَّ من حولِي لكنَّني أبداً لمْ أستطعِ الخروجَ من محنةِ التَّحَوُّلِ مرتينِ مرَّةً عندَ وقوعِ الحادثِ وفُقْدَانِي لعذريَّتي ومرَّةً أخرى عند رُضُوخِي لقبولِ التفاوضِ وتحطُّمِ براءَتِي تماماً فلمْ أخطُ إلى الشارعِ بعدَها ولمْ أحاول العودةَ إلى دراستي .
وكانَ لابُدَّ لي أنْ أتشبَّثَ بشيءٍ يَحُولُ بيني وبينَ محاولاتي المتتاليةِ للانتحار. رحتُ أمارسُ عادةً غريبةً استطعتُ من خلالِها أنْ أَقْوَى وأبْرَأَ قليلاً ، ربَّما بَدا هذا الشيءُ مبهما لكنَّني حينَ بدأتُهُ وواظبتُ كثيرا عليهِ اتَّسَعَ الأفقُ أمامي كثيراً رحتُ أجمعُ

أسماءَ كلِّ مَنْ كانَ ضليعاً في القضيَّةِ مِمَّنْ كان شاهداً حقاً أو زُوراً مِمَّنْ وقفَ بجانبي صِدقاً أو هدَّدَني بقدرتِهِ عَلَيَّ ، وأصنعُ منهُ بطلاً لروايةٍ خياليَّةٍ..!!

وفي الرواياتِ انبثقتْ الشُّخُوصُ بمعانٍ مغايرةٍ واكتستْ لحماً وتدفَّقَتْ فيها الدماءُ، وتزيَّنَتْ بأفقٍ أكثر اتساعاً وتَشَظِيَاً بينما أمسكتُ هذه الشخوصَ بيدي فأنارتْ ليَ الطريقَ وجعلتْني أعرفُ،وأتعلَّمُ،واكتسبُ مهاراتِ التنقيبِ عن المعادنِ بدءاً من الذَّهَبِ والفِضَّةِ وانتهاءً ببعضِ قطعِ الحديدِ الصَّدِئَةِ ..!!

وبينما كانتْ زوجةُ أخي تأتي لي بالأوراقِ والأقلامِ كنتُ أَخُطُّ حروفَ الرِّوَايَةِ كلِّها بخطِّ يَدِي وأصممُ أغلِفَتَهَا بنفسي وأصنعُ منها نسختينِ ثُمَّ أبحثُ عن عنوانِ أحدِهِمْ وأرسلُ إليه بنسخةٍ وعليها إهداءٌ باسمي :

أنا «نور متولي» هلْ مازلتَ تذكُرُني ..؟؟ أُهْدِي هذه النسخةَ مِن الرِّوَايَةِ إلى عزيزي «جريجور سامسا» الذي استيقظَ صباحاً بعد أحلامِهِ - أقصدُ أفعالِهِ - المزعجةِ فوجدَ نفسَهُ قَدْ تحوَّلَ إلى حشرةٍ هائلةِ الحَجْمِ- أقصدُ بغيضةَ المنظرِ- فدخلَ العالمَ الذي نعيشُ وفعلَ كذا وكذا وأذكرُ بدقَّةٍ ما فعله كلُّ واحدٍ تحديداً في قضيَّتي . مازلتُ أتذكرُ اليومَ الذي جاءَ فيهِ أبي بعدما تسلَّم نسختَهُ ليسألَني مندهشاً إنْ كنتُ أعتبرُهُ متواطِئاً فأجبتُه بثباتٍ : نعم ...!

وجاء يوماً كانوا فيهِ بالخارجِ يحتفلونَ بينما كنتُ أُرَتِّقُ جواربَ أخي عندما سمعتُ دقاتٍ على البابِ وعندما فتحتُ البابَ وجدْتُ رجلاً بابتسامةٍ لزجةٍ يلهثُ حولَها الذُّبَابُ ، ويبلغُنِي أنَّ «الحوتَ الأكبرَ» يشكرُني على

هديتي وأَرْسَلَ لي مبلغاً من المال لأشتريَ ما يلزمُني .. !

بُهِتَ الرجلُ حينَ أخذتُ المبلغَ شاكرةً ، وأخبرتُهُ أنْ يُبْلِغَ (جريجور) امتناني و تقبُّلي النصيحةَ منهُ .

وفي صباحِ اليوم التالي أرسلتُ إليه نسخةً أُخرى من الروايةِ وعليها نفسُ الإهداءِ إلّا أنني أضفتُ بعضَ الكلماتِ الأخرى : إلى (جريجور) الذي تَعِبَ كثيراً وأثقلتْهُ الدُّنيا . السُّمُّ الذي وضعتُهُ لكَ عَن طريقِ أحدِ رجالِكَ- في فنجانِ القهوةِ المفضَّلِ لديكَ لنْ يَقْتُلَكَ ، ولكنَّه سيجعلُكَ تُعاني من ألمٍ حادٍّ بالمفاصلِ وأعتقدُ أنَّكَ عايَنْتَ ذلكَ بنفسكَ فقدْ بدأتَ تَشْكُو من ركبتِكَ اليُمنى..أليس صحيحاً ما أقولُهُ لكَ.. ؟؟!!

كنتُ دائماً ما أراهُ عَبْرَالشَّاشَةِ، وأنَا أَحِيكُ الملابسَ واضعاً ساقاً على ساقٍ حذاؤُهُ جاحظٌ في وجهِ مَنْ يحاورُهُ، يتحدَّثُ عن نجاحاتِ أولادِهِ بما فيهمْ قاتِلي ..!!

كنتُ أقارنُ ساقَيْهِ المستقرتَيْنِ فوقَ بعضِهِمَا، بِسَاقَيَّ المنهكَتَيْنِ والمتباعدتَيْنِ بقسوةٍ

، وخدُوشِي الَّتي لمْ تبرأْ من وقتِ الحادثِ ، فَأُغْمِضُ عينَيَّ كثيراً وأتنبَّأُ بالأحداثِ القادمةِ ثمَّ أبتهلُ صامتةً .

رائحةُ البطاطا كانتْ تومِئُ تماماً بنضجِهَا بينما كنتُ قد ثبَّتُ حمَّالَةَ قميصِ النَّوْمِ جيِّداً حينَ سمعتُ طَرْقاً خافتاً على البابِ فهرولتُ مُسْرِعَةً لأفتحَ لهُمْ : أكيد لم يعجبْهُم الاحتفالُ فعادوا مسرعِينَ إلى البيتِ لكنَّني فوجِئْتُ بالحُوتِ الكبيرِ واقفاً وجهاً لوجهٍ أمامي وقد تحوَّل إلى كائنٍ آخر مختلفٍ تماماً : كتفاهُ متهدِّلَتانِ،عيناهُ غائرتانِ ،صوتُهُ متلعثمٌ يسألُنِي شيئاً واحداً : «الترياقَ» لهذا السُّمَّ الَّذي وُضِعَ لهُ فأصابَ مفاصلَهُ بألمٍ شديدٍ وتيبُّسٍ .

ضحكتُ كثيراً كثيراً، ساخرةً بشدَّةٍ من ندمِهِ واستعطافِهِ على طلبِهِ وأجبتُهُ بصوتٍ عالٍ زَلْزَلَ الجدرانَ الأربعةِ : انتظرتُكَ كثيراً كنتُ أعلمُ يقيناً أنَّكَ ستأتي، لكنْ لا ... لَنْ أُعطِيَكَ الترياقَ، فافعلْ بي ما تستطيعُ، عذِّبْنِي كما تريدُ، وأطلقْ عَلَيَّ كلابَكَ قَدْرَما تستطيعُ ..!!

خرجَ ذليلاً مقزّزاً ، يجرُّمفاصلَهُ المتيبسةَ، محاولاً تسلُّقَ حافَّةِ (الدرابزين)،دموعُه المالحةُ تصنعُ لوجْهِهِ شرنقةً لزجةً ،ووجدتُني دون ترتيبٍ أعاندُ ترنُّدِي وارتباكي فأرتدي ملابسي فَرِحَةً أَلُفُّ قِطَعَ البطاطا في ورقِ (الفويل) الفِضيّ ثم أهاتفُ مديرَ دارِ النشرِ ليهبطَ مُسْرِعَاً و أهاتفُ إخوتي كَيْ يحجزوا لنَا مقعدَيْنِ عساني أستطيعُ أنْ أَلْحَقَ ما فاتَنِي مِنْ حَفْلٍ - لَمْ تنتهِ فقراتُهُ بعدُ .. بينَما في ذاتِ الوقتِ أناقشُ الناشرَ في بَعْضِ الأُمُورِ الصَّغِيرَةِ والعَالِقَةِ بينَنَا .

اَلْحَفْلُ

كان يوماً مَهيباً عمَّتْ فيه الدَّهْشَةُ ، غمرتْنا فيه سحاباتُ التعجُّبِ من تصاريفِ الزَّمانِ وتقلُّبِ الأحوالِ . فبعدَ أنْ كان البيتُ المواجِهُ لبيتِنا مِلْكاً «لعبد التواب» الرجلِ المعروفِ بالورعِ والتقوى ، الذي عاشَ وحيداً صامتاً ووافتْهُ المنيَّةُ فجأةً ولم تكنْ له زوجةٌ ولا وَلَدٌ ، انتقلتْ ملكيَّةُ البيتِ إلى «نرجس غنَّام» بعدما استطاعتْ ببراعةٍ فائقةٍ أنْ تُوَفِّقَ بين وجهاتِ نظرِ الوَرَثَةِ المتخاصمين ، وتقرِّبَ نقاط
الاختلاف فيما بينهم ، وتمحو بحِنْكَتِها مسافاتِ الشَّطَطِ والطَّمعِ ثمَّ جاءت في صباحِ يومٍ باردٍ مع فرقَتِها وخادمَتِها وأقامتْ فيه .
وأصبح قدومُها تاريخاً مقدَّساً لقاطني الشارعَ يؤرِّخُون به الأحداثَ فالبنتُ قد تزوَّجَتْ بعد شهرٍ واحدٍ من قدوم (نرجس) ، والولدُ قد عادَ من غربتِهِ بعد سبعة أشهرٍ من وجودِ (نرجس) ، والعجوزُ ماتتْ بعد سَنَةٍ بالتَّمامِ والكمال من رؤيتهم لنرجس .
ولم تحتلْ (نرجسُ) التأريخَ فقط بل امتزجَتْ بكلامِنا اليوميّ المعتادِ فـ (نرجس) قالتْ ، نرجسُ فعلت ، تريدُ ، تكرهُ ، تُحِبُّ ، تمكُرُ، تتواطأُ ، تَهَبُ ، تمنعُ، تبطشُ ، تصدحُ بالغناءِ.. !!
وامتزجتْ نرجسُ بالجميعِ الذين نسوا تماما «عبدَ التواب « وأسقطوه من ذاكرتهم ، لكننا كنا الأكثرَ حظاً فقد اصطفتْنا نرجسُ دون قاطني الشارع كلهم وقربتنا إليها..
وكان يوم سعدِنَا أنْ أرسلت إلينا بخادمتها تطلبُ بعضاً من «الينسون» فقد أجهدَ التدريبُ الشاقُّ صوتَها وهي تستعد لحفلةِ «عيد الحبِّ» التي ستُقامُ قريبا وسيحضرُها حشدٌ كبيرٌ من الوزراء ، المحافظين ،أعضاء المجلس المحلي وبعضاً من سادة البلدة وكبرائها .
وأعطيناها «الينسون» الذي غسلته أمي وجففتْهُ نقياً من الأتربةِ
فظلَّتْ نرجسُ طوال الليل تُدَنْدِنُ ،تغمغمُ ، تجعّروتمتحنُ طبقاتِ صوتِها الأعلى فكنا أحيانا نسمعها تموءُ كقطةٍ ، وتطنطنُ كبعوضةٍ ثم تنعقُ كغرابٍ.
ثم جاءتْنا مرةً تدعونا بإصرارٍ لحضورِ إحدى (بروفات) حفلتِها فخجلْنا منها ولم

نستطعْ أن نجاهرَ بالرَّفضِ.
وأمضينا ليلتَنا نستمعُ لصوتِ عِواءٍ خارجٍ من كهفٍ أسود ليس به سوى العطش ، ونغضُّ الطَّرْفَ عن ثديٍ يهتزُّ بترهُّلٍ عنيفٍ وخِصْرٍ يتمايل بإيماءاتٍ جنسيةٍ فاضحةٍ للغايةِ لكننا اضطُررنا للتصفيقِ الحاد ...!
في صباح اليوم التالي ذهبت كعادتي مثل كل يوم سيراً على قدمي إلى المستشفى التي أعمل بها عاملةَ مطبخٍ رغم حصولي على» ليسانس اللغة العربية « وأعودُ ببعضِ الوجباتِ من غذاءِ المرضى فقد كان يساعدنا كثيراً في توازن ميزانيتِنا وعندما رأتني (نرجس غنام) عائدةً مثقلةً بما أخذتُ أشارتْ لي من نافذتِها ثم نزلت إليَّ مستفسرةً فأخبرتُها الحقيقة فراحتْ تضحكُ بعنفٍ ثم ناولتني كارتاً صغيراً وقالت بحزمٍ : اذهبي به إلى المدير فقد كنتُ أتردَّدُ عليه يوماً للعلاج وعندما ذهبتُ إليه أعطاني من اللَّحم والخضرواتِ والفاكهةِ الكثيرَ حتَّى خُيِّلَ إليَّ أنه لم يتبقَ طعامٌ يكفي لمريضٍ واحدٍ..!!
وجاء أخو نرجس لزيارتِها فنادَت على أخي ليصافحَه فحكى له أخي عن آخر مقابلة أجراها في إحدى الشركات طلبا لوظيفة فقد أتم عشر سنوات عاطلاً ولم يجدْ له فرصةَ عملٍ واحدةٍ رغم شهادتِه الجامعيةِ ،وخبراتِه المتعددةِ وإجادته للغةٍ أجنبيةٍ .
فَهَبَّ الرجلُ وهاتفَ أحدَهم لعشر دقائق بعدها أخبر أخي بأنَّ عليه أن يذهبَ في الغد الباكر لاستلام وظيفتِه الجديدة..
وفي الصباح طالبتْنا نرجس أنْ نفتحَ بابَ بيتِنا لفرقتِها فهي تريد أن تُكْمِلَ بروفاتِ الحفلِ لدينا فبيتُها لا يستوعبُ هذا العددَ الكبيرَ من الحضور
ولم نستطعْ الرفضَ بل على العكسِ هرولَ أخي وراحَ يصنعُ الشايَ ، يقدِّم القهوةَ، ويشعلُ السجائرَ لبعضهم بينما أمضتْ هي الليلَ تتنهدُ وتتمايلُ في ترنحٍ غريبٍ ولكنَّها وهي تمدُّ يدَيها بالكأس تحيَّةً لأخي سألتْنا عن بيتنا فأخبرناها بأنَّنا -أنا وأخي وأمّي لسنا الورثةَ الوحيدين بل هناك ورثةٌ آخرونَ لكنهم تركونا - شفقةً منهم علينا- لنقيمَ فيه.. !
زَوَّجَتْ نرجسُ أخي من فتاةٍ جميلةٍ وزوجتْني من أحد أقاربِها الأثرياءِ ثم جاءتْ تشتري منا البيت..
لكنَّ أمي رفَضَتْ وذكَرَتْ لها عددَ من لهم حقٌ في البيت من الورثةِ ثم تمادَتْ بعنادٍ في التشبُّثِ بالرفضِ فكيف نبيعُ بيتاً ليس ملكَنَا على حدٍّ يقينِهَا ولم نستطعْ أن نستخلصَ منها «حِجة البيت» الَّتي كانت تحفظُها في مكانٍ ما ولم تخبرْ به أحداً

منَّا رغم تنقيبنا وبحثنا المستمر عنها
أخذتْنا نرجس بعيدا وأشارتْ علينا بالتخلُّص من «أمّنا « فقتلناها بدمٍ باردٍ وأعطينا البيتَ لنرجسَ وقبضْنَا الثمنَ مهلّلينَ..!
رُحْنَا نزغردُ فرحين وفتَحنا البيتَ للبروفة الأخيرة قبل أن نلملمَ حاجياتِنا ونغادرهُ بينما نرجس تواصلُ جعيرها ...!
وجاء موعدُ الحفلِ
فذهبنا أنا وأخي..
ورأينا نرجسَ تغنّي ويصفقُ لها الوزراءُ والكبراءُ والشبابُ بينما تترنح أكتافُ البناتِ على إيقاعِ هذيانِها
و في نفس الليلة جاءتني أمّي بالمنام تهدلُ كحمامةٍ بيضاءَ وتبكي بكاءً أسْوَدَ لا اعوجاجَ فيه..!
و أخبرتني بأنها لن تترك «نرجس غنام» بعد ما فعلتْه بنا وأنَّها ستنتقم منها شرَّ انتقامٍ..
ولم تمضِ أيامٌ إلا وقد ذاعَ خبرُ إصابةِ نرجس غنام بسرطان الرئة الذي امتدتْ خلاياهُ وانتشرتْ حتَّى وصلتْ للأحبال الصوتيةِ
ورقدتْ نرجس صامتةً تماماً عن الغناء المباح.
فما كان منّي لأجلِ» الفقراءِ» الذين كانت تعطفُ عليهم نرجسُ ولأجل محبّي «الطَّرَبِ الأصيلِ» الذين كانتْ تصدحُ لهم بأغانيها ولأجل «تاريخ الفرقة الطويل» في مكافحةِ الفن الهابطِ ... من أجلِ كلّ ذلك ولكلّ ذلك ضحيتُ بنفسي ووقتي...!
و أقمتُ في بيتها – الذي كان يوماً بيتنُا -ارتديتُ ملابسَها ، صبغتُ وجهي بألوانها ، تمايلتُ بنفس طريقتها ورحتُ أعوي كوحشٍ ضارٍ خارجٍ من كهفٍ أسْوَد ، داخلٍ في أحراشٍ عَطْشَى والجميعُ يصفقُ ويدعونني لأحياء حفلةِ «عيد الحب « القادمةِ وبينما كنتُ مستغرقةً في البروفات أُلْغِي الحَفْلُ دون إنذارٍ وذاعَ خبرُ فتح قضية «عبد التواب» الذي تبيَّن أنه قد ماتَ مَسْمُوماً حيثُ ظهرتْ شواهدُ و أدلَّةٌ جديدةٌ على نيةٍ مبيتةٍ لقتله من قِبَلِ أحد عشَّاقِ أغاني نرجس الوطنية فسقطتُ في صمتٍ رهيبٍ وتوجُّسٍ مبهَم وأنا أتذكَّرُ «حِجة البيت» التي مازالت مختبئةً في مكانٍ ما لم يصل إليه أحدٌ منَّا وبينما كنتُ أسألُ أمّي صارخةً متوسِّلَةً : أجيبيني أينَ خبَّأْتِ الورقةَ.. ؟؟ كانتْ أُمّي هناكَ بعيداً تشدو ضاحكةً ،مسرورةً وتهدلُ كحمامةٍ بيضاءَ بلْ شديدةِ البياضِ...!

عَطَشٌ

«ليستْ حياتي سوى شظيةٍ في مشهدٍ طبيعيّ»
(ياسوناري كواباتا)

صخبٌ يسيطرُ على تفاصيلِ المكانِ ودورةِ الزَّمانِ ، أمَّا البَشَرُ- الأبطالُ - فقد تاهوا وسط ضجيج نتج عن اختلاط الألم وارتفاع جلبةِ الدهشة . لم ينجُ من الفوضى سوى بطلٍ واحدٍ فاستطاع بحِنْكَتِهِ أن ينفلتَ من الدائرةِ قبل تصاعُدِ الحدثِ حيثُ وُجِدَ مقتولاً مفصولَ الرأسِ عن الجسدِ ، دماؤهُ الحارَّةُ متسربةً في اتجاهاتٍ عدَّةٍ أمَّا يَدُهُ فمازلتْ – تقبضُ - على مفتاحِ جامعِ البَلْدَةِ القديمِ والَّذي شيَّدَهُ الأجدادُ منذ مئاتِ السنين ، وتعبوا كثيراً في إرساءِ قواعدِ البِناءِ وإعلاء المئذنةِ الشاهقةِ صَوْبَ السماء ، رفض المقتولُ أن يعطيَ المِفتاح لأحدٍ وظلَّ متشبِّثاً به للنهاية..!

كانَ رجْعُ الصَّدى يردُدُ كلماتِه التي ما فتئ يردُدها : اذهبوا وطهِّروا أنفسَكم ،نساءَكم وأولادَكم بينما هم فاغرين أفواهَهم لا يُلقونَ بالاً لمقتلِه.

جاءتْ الشرطة ،لملمتْ جزَيْئِهِ على بعضِهما . مَرَقَتْ بسرعةٍ لتخترق الجمع لكن شبابا كثيرون وقفوا صفا واحدا يمنعونها من الحركة ويتسابقون فيما بينهم على الإدلاء باعترافاتٍ كاملةٍ عن قيامِهِمْ بقتل الرجل .. أصروا كثيرا وأقسموا على كونِهم القتلةَ فقط نظير حصولهم على شيءٍ بسيط للغاية !! شَرْبَةِ ماءٍ تروي ظمأَهُمْ .

لم يكن أمام الشرطة مفرٌ فأخذتْهم كلَّهم ..

ركبوا- جميعاً - العربةَ كانوا ستةً من الشباب وسابعُهم فتاةٌ صغيرةٌ لا يتجاوز عمرُها العشر سنوات لكنها أصرت وقد بلغ بها العطشُ مداه إنها القاتلَة وراحتْ تمثِّلُ لهم بإتقانٍ مُحْكَمٍ الجريمةَ

تحركت العربة بهم وهم جالسون على المقاعد الحديديةِ الصَّدِئَةِ يحاولون أن يتفادوا نظراتهم لبعضهم البعض

راح كل واحد منهم يغمض عينيه متذكرا الأيام التي انقطعت فيها المياه عن

بلدتهم وكيف كانوا يذهبون إلي البلدات الأخرى المجاورة يطلبون الماء لكن المياه نضبت أيضا في البلدات المجاورة لتنضب مع الماء قدرتُهم على الاحتمال ويجرفُهم إحساسٌ مَقيتٌ بالجفاف وامتداد سطوة العطش
زاغتْ أعينُهم كثيرا وهى تتلفت في كل الاتجاهات لترى الأشياء حائرة وظمآى ومكتسية باصفرارٍ مَقيتٍ
حاول أحدُهم أن يشعل سيجارة لكن الآخر الجالس قبالته نبهه موبخا بأن الرائحة ستزيد من الإحساس بالعطش فربى بالسيجارة تحت قدميه وراح متأملا أرضية العربة يختلس النظراتِ بعيدا إلى الآبار التي جفَّتْ ،الضروع التي ذبلت ،الزرع الأخضر الذي انهدل عنفوانُه فدفن رأسه انحناءً وأسىً أمامَ جفوة التراب وسطوته..!
تنهدوا في لحظة واحدة وهم يتذكرون تصايُحَهم فيما بينهم وإصرارَهم على أن يذهبوا للشيخ «عِفَّت عبد المولى» ليؤمَّهُمْ للصَّلاةِ
جعلهم صدى العطش الذي بلغ غايتَه رهائنَ الاستسقاء وطالبي الرحمات فتجمَّعوا في باحة دار الشيخ مطالبين أن يؤمهم للصلاة
مرَّت العربةُ المترنحةُ والمثقلة بالشخوص على احد المطبات الصناعية فرفعت أجسادَهم لأعلى ثم قذفت بهم لأسفل فأحسوا بوجع يُضاف إلى
أوجاعهم وانفلتت من فم الصبيَّةِ صرخةٌ باكيةٌ وجاءَهم الصوتُ جليَّاً بعد أن رفض بشدة أن يؤمهم للصلاة
قائلا لهم بثبات : الماءُ طاهِرٌ مطهِّرٌ لا يطلبه إلا طاهرٌ اذهبوا فتطهَّروا ولا تأخذنَّكُم الغفلةُ..!
لكن الأمر ازداد سوءاً واللهيب ازداد اجتياحاً . راحوا يزدادون حِدَّةً وارتباكا وشراسةً ثم بدأت الأطفال والعجائز والبهائم تَنْفُقُ واحداً تلو الآخر
فما كان منهم إلا أن ذهبوا إليه يرجونه ويستعطفونه أن يرأف بحالهم لكنه ازداد تشبثا بالرفض
تشاوروا فيما بينهم واستقرَّ رأيُهم على اختيار شيخٍ آخر ليؤمَّهم للصلاة ففرح كثيرا ووافقهم وجاء معهم إلى الشيخ (عِفَّتْ) طالبا منه مفتاح الجامع لكنه ازداد تشبثاً برأيه وأجابهم بكلمات صريحة لا لبس فيها ولا تحتمل التأويل : أنتم وحقِّ الله غافلون..!
اغتموا الفرصةَ التي جاءتكم فمفاتيحُكم بأيديكم ، وأقفالُكم رهنُ قلوبِكم ، اذهبوا وطهِّروا أرواحَكم وأبدانَكم، نساءَكم وأولادَكم ، مالكم صامتين عن

أموالكم المكدَّسة وأفعالِكم المدنَّسة ومصارف مياهكم الأَسِنَةِ فقط حاولوا ولو مرة ثم تعالوا نقفُ بين يدي الله نسأله أن ينزِّل علينا من السماء البركات ومن السحاب الماء

تبادلوا فيما بينهم النظراتِ وكلما تقابلت نظراتُهم في لحظةٍ تنافرت في نفس اللحظة خيفةً..!

حاولوا مرارا الهروب من تلك اللحظة التي تواطأوا فيها للتخلص من شيخهم نهائيا وكيف أوعزوا لكُبَرَاءِ البلدة وسادتها أنَّ الشيخ (عِفَّت) سيصبح مناضلاً أمام قضبان سجونهم

وفي مقر إحدى الجهات السيادية العليا تم تهديد الرجل وتعذيبه بطرق قديمة ومكررة لكن الرجل لم يستسلم بل صاح بهم : سأموت عطشا مثلكم لكني لن أبيعكم الحقيقةَ نظيرَ بضعة ثمرات من أشجار الوهم ..!

ولم يصلوا لشيءٍ غير أن أيام أخرى انقضتْ ازداد فيها الألم وراحت البلدة تعاني مزيدا من السلب والنهب والفوضى ،ازداد الهجوم على البيوت وحفر الأراضي بحثا عن آبار للماء وأصبح وشيكا اندلاع ثورة العطشى وبين عشية وضحاها بثت القنوات الفضائية والإذاعات الإخبارية حديثا مطولا لشيخ شاب في مقتبل عمره يتحدث عن رحمة الله الغفور الرحيم المفتوحة أبوابُه للبشر أجمعين والقابل توبة الجميع دونما شرط التخلي عن شيءٍ

عمت الفرحة ، استبشر الناس والتفوا حوله . خلعوا عليه ثوب الإمامة وطالبوه لأن يؤمهم للصلاة فوافق دون تردد وأظهر لهم إحدى النسخ الاحتياطية لمفتاح الجامع وأمرهم جميعا أن يأتوا في صباح اليوم التالي وقد تيمموا بالتراب

كانت العربة مازالتْ تسير عندما نطق الشاب الثالث ناحية اليمين : قتلناه، تواطأنا عليه عندما لم نفهم، فبعض الغباء تواطؤٌ

رد الذي في المنتصف ناحية اليسار: كان لابد لنا أن نفهم

فرد الأول ناحية اليسار وقد بدا على وجهه الندم : كانت الأمور تسير بسرعة البرق كنا طرفا فيها لكنا لم نكن الطرف الأقوى !! ازدادت حِدَّةُ الجدل والعتاب فيما بينهم في لحظةٍ حالكةٍ تشبه كثيرا غبشة الفجر حين جاءوا ليؤمهم الشيخ الجديد ويقيم الصلاة بينما النساء تزغرد ، الأطفال تهلل حتى البورصة كانت تترنح ارتفاعا وانخفاضا من تأثرها بالأحداث

كان مشهدا مَهيبا اقشعرَّتْ له الأبدان و بثته وسائلُ الإعلامِ العالميةِ والإذاعات المحلية وأغرقه المحللون في فيض من الاستنتاجات والتحليلات الأكاديمية

موضحين قدرتنا كبلد متحضر في القضاء على الإرهاب وقتل خفافيش الظلام التي ضلت عن الحق وفسرت الشريعة السمحاء كما يحلو لها
ووسط هدوء قاتل وقفت العربة ونزل منها الشباب وقد بلغ بهم إعياء العطش مداه ، أوقفوهم عند بئر الماء ليشربوا، كان سطح الماء يترقرق عاكساً صوَرَهُم ، بينما كان هناك رجلٌ مبهمةٌ ملامحُهُ وغائمةٌ صفاتُهُ وقف أمامهم يسأل عن كتاب كان بجانب الشيخ (عِفَّتْ) لحظة مقتله ؟؟ كان لا وقت لديه لتهديدهم أو حتى النقاش معهم كان يسبر أغوارهم وينظر على تفاصيلهم وهم عرايا ويعيد السؤال عن الكتاب لكنهم في لحظة خاطفة ركضوا جميعا صوبَ غابةٍ موحِشَةٍ متشابكٍ ظلالُ أشجارها ودون اتفاق مسبق أصروا جميعاً على الصمت ورفض الماء وراحوا ينظرون إلى بعضهم البعض وبصوت عالٍ راحوا يصرخون : سنموت عطشا ولا ماء سيبللُ شفاهَنا حتى تأتونا بمن قتل (عِفَّتْ) واستنسخ المفتاحَ ثم ألقى بالكتاب جانباً في دهاليز الهجر المعتم والنسيان ...!

وَخْزٌ

«قد يكونُ هذا العالَمُ جحيمَ عالَم آخر»
«الدوس هكسلي»

كان الحشد منشغلا بالركض في كافة الاتجاهات ، والتدافع لاحتلال مقعد شاغرٍ من مقاعد (الميكروباص) حين ظهر وجههُ بغتةً كأنما انشقَّت الأرضُ عنه .
يحمل على كتفيه عناء أربعة عشر أو خمسة عشر من الأعوام المُضنية بينما عيناهُ تهطلان بشدةٍ وتلملمُ يداهُ الناحلتان حافَتَي الرداءِ المُلقى على جسده بعفوية فيكاد يكشف عن عورته لولا بعض غرز يديوية غير متقنه كل هذا كان يعطيه عمراً أقل بكثير من عمره ازداد تكاثفهم عند الباب وتشابك أقدامهم وأرجلهم وابتذال سبابهم لبعضهم البعض وأُيقنت أَنْ ليس ثمة فرصة لي للصعود وأنَّ عليَّ اقتناصُ فرصةٍ أخرى في (الميكروباص) القادمِ.
تراجعتُ للوراء قليلا وأنا أحاول الهرب من كلماتهم النابية فرأيتُهُ واقفاً بجانب الشرطي الذي راح يجادله ويعنِّفُهُ ويهدده بحركة حازمة من يديه . حين واجهتُ الشرطِيَّ تأكدتُ من إحكام غلق أزرار ردائي العلوية ..
ـ وحادثت نفسي قائلة : دائما هم رجال الشرطة – هكذا يتجنون على المحرومين الضعفاء في وضح النهار ويتركون هؤلاء الذين يسرقون قوتنا كل ساعةٍ .. ؟؟
تراجعتُ للوراء أكثر وببطءٍ فسمعتُ الشرطيَّ يضحك ضحكاتٍ غير موارية ثم يهمسُ له قائلا : إن كان على قسمة الحق فأنا لي الحق في النصف .. أنا من يتركك ترتعُ في هذا المكان بمفردِكَ ، وتجني كلَّ تلك الأموال ، وأنا من يَحُوْلُ بينَك وبينهم لإيداعك الحبس ..!!
نكَّسَ الفتى رأسَهُ ومضى لا ينطق بكلمة وقد تحسَّسَ شيئاً داخل ملابسه ثم تفرق الاثنان كلٌّ في اتجاهٍ .
لم تمضِ لحظاتٌ إلا وقد مرق الفتى مرة أخرى وسط الزحامِ وراح يسأل بصوت شجيٍّ وأنينٍ ودموعٍ لزجةٍ تهطلُ بغزارةٍ .. !
أحسستُ حين أمعنتُ تأمُّلَهُ كأنما يخلع وجها ويرتدي وجها، يزيح عن جسده جلدا

ويخبّئُ جلدا بينما بعض الثآليل المنتشرة في رأسه تستوقفني لأمعن النظر فيها كثيرا..
كان كلما سأل أحدَهم ينظر إلى حالِه ودموعِه فيعطيه..
حتى جاء عندي ووقف أمامي سائلا ومستعطفا أن أعطيه ثمنا لكِسْرَةِ خبزٍ فهو جائع جدا ولم يأكل شيئا منذ يومين
راح يساومني عن الجنة والسترورضا الله بينما كنت في حيرة منه وفي حيرة من ترددي : هل أعطيه أم لا ؟؟ ازداد إلحاحُهُ فازدادتْ حيرتي ثم أجبته : يعطيك الله.
أخيرا جاء (ميكروباص) وبعده آخر فذهبتُ مسرعةً إلى الثاني وقد استطعت بالكاد أن أحجز لنفسي مقعداً.
لم تمضِ لحظات وأنا جالسة إلا وقد أحسستُ بوخزٍ حاد يؤلمني وحين التفتُّ وجدتُهُ جالسا إلى جواري وفي يديه مُدْيَةٌ جديدةٌ ولامعةٌ يغرزها في جنبي
ودون أن تتلاقى أعيننا أومأ لي بالصَّمْتِ فصمتُ ، أومأ لي بالعطاء فأعطيتُه كلَّ ما معي من نقود
كنت أعاند انهمارَ دموعي وتزْيدَ خفق قلبي بينما الكل مشغولون تماما عني بالصعود واحتلال المقاعد
ظل جالساً والمُدْيَةُ في جنبي بينما أومأ للسائق بألا يدع أحدا يجلس بجانبي ثم أعطاه ثمنَ تذكرتين..!
عند أول تقاطع نزل وقد أوصى السائقَ مراراً عليَّ ثم راح يشير لي مودِّعَا ، فأشرتُ له خائفةً وأنا أغالب دموعي التي بدأتْ تتساقطُ . كنت أحاول أن أتمالك نفسي بينما وجهُ الشرطيُّ الضاحكُ يأتيني من بعيد عبرزجاج النوافذ المتَّسِخِ والمشروخِ في إحدى زواياه ووخزُ المُدْيَةِ مازال يؤلمُ ظهري بشدة و بينما كنت أطيل النظرَ إلى يدِ الشرطي قفزتْ إلى ذاكرتي أشياءُ أخرى كنت قد نسيتُها تماما وحسبتُ أنها قد سقطتْ بالتقادُمِ من ذاكرتي .

فِرَارٌ

«أكتبُ كُتُبِي كما تُصْنَعُ لوحةٌ»
«كلود سيمون»

وقفتُ في الشرفةِ أتأملُ إشراقةَ الصبح و أسقي الزرع فلمحتُ أحدَهم من بعيدٍ في الشرفة المقابلةِ تماماً لشرفتي لا يفصلني عنها سوى عرض الشارع يسقي الزرع مبتسما ومحدّقاً فيَّ .. ابتسمتُ من تلك الصدفة التي جمعتنا ،انزويتُ للداخل وأغلقتُ النافذةَ . أتممتُ فطوري واحتسيت قهوتي ثم نزلت إلى الشارع لأستقل عربة إلى المستشفى حيث كانت ترقد – هي - مريضةً منذ أيامٍ فوجدتُ رجلاً منتظراً مثلي مشيراً للعرباتِ ومستفسراً عن عنوان المستشفى. على الرصيفِ الموازي لمحطة «الباص» كان هناك بائعٌ للجرائدِ فوقفتُ أمامَه مشيراً إلى جريدتي المفضّلة لكنه لم يعبأ كثيرا وغير مبالٍ ناولني إحدى الدورياتِ الأدبيةِ .. انتابتني دهشةٌ بالغةٌ فلم أكن يوما من هواة الأدب ولا من قرّاءِ الشِّعرِ وقبل أن اعترض جاء رجل ووقف قُبالتي فناوله البائع النسخة الثانية من نفس الدورية الأدبية . ابتسمتُ وأنا أحدّقُ في الغلاف المصقول بيده وأمسح الكلماتِ بعَيْنَيَّ)القصة القصيرة وأسئلة الهَمِّ الوجوديّ - قراءة في قصة فرار. تبادلنا أنا والرجل نظرات تحوي ودّاً سطحياً وتوجساً عميقاً بينما رحتُ أعدو مسرعا متجها الى حيث كنت واقفا وأنا أردد في نفسي : يبدو أنه يوم مصادفاتك العجيب . توقفت العربة فصعدت وصعد الرجل برُفقتي ، ذكرتُ للسائق اسم المستشفى فهالني أنَّ الرجل يذكرُ له نفس الاسم ويوصيه كثيرا أن يُنزِلَه أمامَ باب المستشفى ..!

رَنَتْ على وجهي ابتسامةٌ خافتةٌ محاولاً التودُّدَ للرجل فطريقُنَا واحدٌ ووجهتُنا واحدةٌ لكنه واجهني بتجهمٍ أوقفَ كلَّ محاولاتي ووأدَ تودديَ إليه تماماً فتركتُه مولّياً دخلتُ المستشفى وسألتُ عن رقم الغرفة وأخبرتهم عن اسم المريضة ثلاثيا فوجدتُ الرجلَ وقد هَرِمَ كثيراً يخطو متابّطاً عكازه كما كان يضع على عينيه نظارةً طبيةً وقد وَهَنَ عظمُهُ كثيرا رحتُ أُخَمِّنُ أن الفرقَ بين عمري وعمرِهِ يتعدى ثلاثين عاماً على أكثر تقديري فجفلت كثيرا وامتلأت ريبة من مرور السنوات بتلك

السرعة الفائقة كان الرجل مثلي تماما يسأل عن رقم الغرفة ويذكر اسم المريضة رباعيا بل ويزيد فيذكر لقب العائلة ..!

ارتبكت كثيراً وساءني أكثر هذا الوجود الممتلئ بهذه الصدف الغائمة ووقعتُ في حيرة شديدة من كل ما يحدث وتواطؤ كلُّ هذه الصُّدَف عَلَيَّ خاصة وأنا متيقن تماما أنني لا أعرف هذا الرجل من قبل ولم أره في سابق أيامي كلها يزورها أو تذهب هي لزيارته وقفت عند الباب لأدخل عليها فوجدت رجلا هو نفسه الرجل السابق يصر على الدخول إلى غرفتها بعناد عجيب عندما دخلتُ كانت شبهَ عاريةٍ تماماً إلا من النَّذْرِ اليسيرِ الذي يسترها بينما كانت الممرضات يَنْزَعْنَ عنها ملابسَها المبتلة من أثر البول الذي تسرب دون إرادةٍ منها ففوجئت به وقد تخطَّاني وتبَّع لمساعدتهم . زعقتُ فيه دون وعيٍ وقد فقدتُ قدرتي على التحكُّمِ بأعصابي : كيف تسمح لنفسك يا رجل أن تدخل على أمّي وهي عاريةٌ وأنت رجلٌ غريبٌ ؟؟ هل جننتَ يا رجل.. ؟؟

فأجابني متجهّما : إن هذه الأمَّ- التي تقول عنها إنها أمك – امرأةٌ عاهرةٌ قد رأى جسَدَهَا مئاتُ الرجال أما أنا فلا يحقُّ لك أن تصيح فيَّ هكذا؟؟ ومن الآن .. فأنا لستُ أبوك.. ؟؟

تملكتني دهشةٌ ومرارةٌ إذ كيف أقضي العمر كلَّه أتوهَّم بأنَّها عفيفةٌ طاهرةٌ وأنادي رجلاً غريباً بكلمة أبي وأنا لا أملك القدرةَ على الإثبات أو النفي ؟ أضاع العمر عبثا وأنا أركض صوب ما لا أملكه ولا أستطيع التيقنَ المطلقَ من حقيقته ؟؟ اقتربتُ منها وجلاً وسألتها : أمي هل أنت فعلا داعرةٌ ضاجَعَتْ رجالاً كُثُرٌ وهل هذا الواقف في تجهُّمٍ هو أبي صدقاً أم أن أبي رجلٌ آخرٌ غيرُهُ ؟؟

ردَّتْ عليَّ محاذرةً النظرَ في عَيْنَيَّ ولا مباليةً صرخَتْ : من أنت.. ؟؟

أنا لا أعرفكَ فَلِمَ تقتحمُ عليَّ الغرفةَ هكذا.. ؟؟

ثم أشارت لي لأبتعدَ وأتراجع للوراء. راحتْ تومئُ له وتناديه فجاء واقتربَ منها وراح يقبّلها بشهوةٍ ومجونٍ كان يجوبُ بشفتيه في حافة شفتَيْهَا السُّفلى بينما كنت انتفضُ كمالك الحزين حائراً على حافة شفتيها العُليا..!

أدركتُ أنني ليس لي مكانٌ بينهما فتركتُ لهما المكانَ بينما كنتُ أتابع حركةَ الجسدَيْنِ المتعانقَيْنِ والغارقَيْنِ في فُحْشٍ حسيّ واضحٍ ودموعٍ وجدٍ حارقة . ومشيتُ خطواتٍ خارج باب المستشفى ثم أسرعتُ الخُطى حين سمعتُهم كلَّهم ينادون عليَّ: يا ابنَ العاهرة .. انتظرْ ظللتُ أفرُّ من البوابات التي تصادفُني ، ومن الشوارع التي يقتحمُني صخبُها ومِن الجالسِين متلاصقِين على مقاعدِ العربةِ حتَّى وصلتُ البيتَ

فدخلتُ وأغلقتُ الباب من الداخل جيدا. أخذتُ نفساً عميقا ثم جريتُ صوبَ النافذةِ و رحتُ أنظر من خلفِ الستائر المتربة فرأيتُهم جميعا قد تجمعوا أسفل النافذة وراحوا يقذفونني بأبشع الشتائم وينادونني بأقذع الشتائم فأغلقت النافذة وأسدلت الستائر جيداً. صنعتُ لنفسي كوباً من الشاي باللبن ورحتُ لا مباليا أتصفح الدورية الأدبية الملقاة واقرأُ مستفيضاً عن أشياء لا أفهمها ولا تعني لي شيئا بينما صوتُهم في الخارج قد خَفَتَ كثيرا حتى تلاشى . حاولت النوم لكن الأرق انتابني من جديد فنهضت، ارتديت ملابسي وخرجت .. جلست في المقهى واضعا ساقاً على ساقٍ ومستندا بظهري قليلا للوراء فرأيت الكثير من البشر وقد ارتدُوا نفسَ ملابسي واضعين ساقاً على ساقٍ كهيئتي وكلهم بلا استثناء يقلّبون صفحاتِ نفس العدد من تلك الدورية الأدبية ثم لا مبالين مثلي يلقونَها جانباً على مقاعدهم الشاغرة . و بينما كنتُ أَهُمُّ بالفرار من نظراتِهم المثبَّتة عليَّ استوقفني أحدُهم وسألني ..هل أنت هو.. ؟؟ هذا المطبوع اسمه على غلاف الدوريَّة.. ؟؟
لم أعرف بمَ أجيبُه ..؟
سوى أنه قال مغتبطا : فرحتُ كثيرا بهذه الصدفة التي جمعتني برجلٍ عظيمٍ مثلِك ثم أخرجَ من جيبهِ هاتفَهُ وبدا فَرِحَاً مغتبطاً في التقاط الصُّوَرِ لنا سويَّاً بينما انضمَّ إلينا في الصُّوَرِ الكثيرُ من روَّادِ المَقْهى الدائمين وبعضاً من النساءِ العابراتِ كما أوقفَ النادلُ خدمتَهُ للزبائنِ وانضمَّ إلينا مسرعاً وبعدها أومأ الرجل لنادلِ المقهى فَرِحَاً ، قائلاً بحماسةٍ فائقةٍ : حساب - ما أخذه هذا الرجلُ من شايٍ وقهوةٍ ومشروباتٍ أخرى- عندي .

صُوْرَةٌ..

اكتشافُها لحماقتِهِ كان أكبرَ كثيراً من استعدادِها لتحمُّلِ الصدمةِ ، غمرَهَا الاكتشافُ بسيلٍ من الشُّكُوكِ والهواجسِ الرَّعْنَاءِ..

أيامٌ كثيرةٌ مضت راحت تلملم فيها حزنَها وتُسْكِتُ بكاءَهَا لتبدوَ أمامَهُ بحالتِها العاديةِ حتَّى استعادتْ بعضاً من توازنِهَا

كانت هوَّةُ الكشفِ تزداد اتساعا وهى ترمِّمُها لكي لا تقفُ عند نقطة الفراق الفاصلة..

لكنها تحدَّتْ ضعفَها ،كرامتَها الجريحةَ و راحتْ تهمسُ لنفسِهَا : لن أتركَ الأمورَ تغلبُني سأركضُ صَوْبَ الحقيقةِ حتى أصلَ لتلك المرأةِ الأخرى تلك التي اقترَنَتْ بزوجي بعقد زواجٍ صحيحٍ وموثَّقٍ ، نجحَ كثيراً في إخفائِهِ بين طيَّات أسراره حتى اكتشفْتُهُ مصادفةً.. !!

راحتْ تقلِّبُ صفحاتِ أيامِهما سويا تنظر إلى صفحات الكفاح، ومتونِ الحلم ،هوامش سعادتهما، وحواشي التعب وتكرر سؤالها لنفسها : لِمَ وكيف ومتى حدث ذلك ..؟؟

فلم يعترِ علاقتَهُمَا تغيرٌ ولو طفيفٌ يومِئُ لها بالشَّكِّ ،ولم يخطئْ ولو لمرةٍ واحدةٍ فترتعشُ لديها قرونُ الاستشعارِ ، ويهمس لها حدسُها عن احتمال وجود امرأةٍ أخرى..!

وأين عرف هذه المرأةَ الغريبةَ ذات الجنسية الأجنبية وهو الذي لم يسافر قطُّ بعيدا عن بلدتهما ولا تغيَّبَ عن فراشِهما ولو ليلةً واحدةً ؟؟

إذن فكيف ومتى عرف هذه المرأة وكيف تطوَّرتْ علاقتُهما حتى وصلت للزواج..؟؟

راحتْ تنظرُ للورقةِ التي عثرتْ عليها مصادفةً، وهيَ تقلِّبُ في أوراقٍ قديمةٍ مهترئةٍ كانت تنوي التخلُّصَ منها وحرقَهَا ثم تَمْتَمَتْ مؤكدةً لنفسِهَا : زواجاً شرعياً رسمياً وموثقاً بالشهود ..!!

راحتْ تحوِّم من بعيدٍ لأيامٍ طويلةٍ حول بغيتها تسألُ كثيراً الأصدقاء المقرَّبين والأقرباءَ المخلِصين ، والعابرين سِرَاعَاً في حياتهما ، راحتْ تجتهد في التسلُّلِ لباقي الأوراقِ المُهْمَلَةِ ، تعتصرُ تاريخاً من الأشياء، تستجدي الفطنةَ لترشدَهَا لكن دونَما جدوى..!!

لكنني لن أستسلم ..!

هكذا حادثتْ نفسَها وأردفَتْ : لابد وأن أصل إلى»كريستين» هذه لأعرفَها وربما لأسألَها كيف وصلت إلى مخدعي دون أن أدري ..؟

ومتى عرفتْ زوجي وتزوجتْهُ وهو الرجلُ الوفيُّ المخلِصُ شديد التدين و الذي لا هَمَّ له سوى إسعاد أسرتِهِ ، وأولادِه.. ؟؟؟

صوتٌ بداخلها يناديها أنْ تكتمَ ما عرفتْهُ وتكمِلَ حياتَها لا مباليةً فالأمرُ حدث منذ سنواتٍ عدَّةٍ ولم يؤثرْ عليها ولم تكتشفْهُ وقتَ حدوثِهِ فربَّمَا كانت نزوةً مرَّ بها زوجُها وانتهَتْ ..!

أوربما تجربة دخلها عُنوةً ثم خرجَ منها نادماً ..!

لقد كانت قصة غائبة مهملة ما كان لها أن تعرفَها سوى أنَّها عَبَثَتْ بتلك الأوراق البالية بُغْيَةَ حرقِها كلِّها بينما صوتٌ آخرٌ منبثٌّ وضاحكٌ كإبليس يشدُّها ناحيتَهُ مذعوراً وناصحاً : ليس أقل من أن تعرفي حقيقتَها..!

أجهدها البحثُ دون جدوى ولم تصل لأي شيءٍ يفيدُها حتى هداها عقلُها ذاتَ يومٍ أنْ تكتبَ بحثاً على صفحةِ المعلومات العنكبوتية

كتبت اسم «كريستين « ثلاثياً كما هو مدوَّن في وثيقة الزواج فلم تجدْ شيئا ، كتبته بلغةٍ عربيةٍ رصينةٍ في أحد مواقع التواصل الاجتماعيّ المختلفة فذبحها الغموضُ العربيُّ والمواءمةُ ..

كتبته بلغته الأصلية فبدا الأمرُ جليًّا لا لَبْسَ فيه.. !!

كانت صُوَرُ «كريستين» منتشرةً مع «رئيسة القسم» الذي يعمل فيه زوجُها كانتا تأكلان معا ، تشربان معا ، تمرحان سويا ، تتحدثان سويا تتعانقان وأيضا عندما يحل بهما التعبُ ترتميان بجسديهما تقبلان بعضهما البعض.. !!

وتذكَّرتْ «رئيسةَ القسم» هذه المرأة التي كانت تشرف على رسالة الدكتوراه لزوجِها والتي كانت تبدولها غريبةً بعض الشيء ليس لسلوكٍ غريبٍ صادرٍعنها بل لإحساسٍ مراوغٍ يجتاحُ روحَها لا تدري كنهَهُ كلَّما رأتْهَا ..

كانت دائما ما تهاتف زوجها أو يهاتفها هو ليلتقيا في أوقاتٍ مختلفة حاملاً معه الكثير من البحوثِ الذي أمضى ليالي كثيرة مؤرِّقًا حتى يتمِّمَها..!!

و توقفتْ هناك بعيداً عند تلك اللحظة التي أسندَ فيها زوجُها رأسَهُ على صدرِها وراحَ يُفضي لها حزيناً ومتوجعاً ومعترفاً : هناك اثنان غيري - نحنُ ثلاثةٌ متنافسون - على تلك الوظيفةِ الشاغرة ومجلس الجامعة سينعقدُ وعليه أنْ يختارَ بين ثلاثتنا لكنني أعتمد كثيراً على رأي رئيسة القسم وأوقن تماماً أنها في

صفي
وراحتْ تتسمَّعُ من بعيدٍ لعوائه : مستقبلي المهني .. معتمد كثيرا عليها وسيختلفُ كثيرا باختيارها ..
فأنا إما أن أصبحَ أستاذاً جامعيا أو ستركُلُني بقرارِها بعيداً أستجدي عملاً - لا يسدُّ لنا - رمقاً ..!
رَعَدَ صوتٌ كالتنينِ داخلها أيقظَهَا من توارُدِ خواطرِهَا وراحَ ينشبُ أظافرهَ في تلافيف عقلِها صارخاً فيها - استمرّي ... لا تقفي هاهنا أكملي البحث..!
راحتْ تستعرضُ سيرةَ حياة رئيسة القسم وصورِها على صفحتها الشخصية وفي المؤتمرات واللقاءات العامة والندوات واللقاءات الحوارية فسطع أمامها بَرْقٌ أغشى عينيها حين
اكتشفتْ أنَّ علاقةَ رئيسةِ القسم بـ(كرستين) طويلة الأمد وعميقة الجذور..!
ومن باب الحِيْلةِ صَنَعَتْ لنفسِها صفحةً باسمٍ مستعارٍ وبعثتْ لها طلبَ صداقةٍ على (الفيس بوك) بعد أن انتحلَتْ شخصيةَ أستاذٍ زائرٍ في إحدى الجامعات العالمية في نفس تخصُّصِها ووضعتْ صورتَه على صفحتِهَا
قبلتِ السَّيدةُ صداقةَ الرجل فظلَّ الرجلُ الغريبُ المُتَدَثِّرُ بالألاعيب يغريها ويكتب إليها كلَّ ما يسيلُ له لعابُ النساءِ لكنها لم تُجِبْهُ..! فطلبها لممارسةِ الحُبِّ صَرَاحَةً..
رفضتْ بإصرارٍ معترفةً له ودون مواربَةٍ بأنها تعيش أحلى أيامِها مع امرأةٍ تحبُّها كلَّ الحبِّ وأنَّها لَيْسَتْ على استعدادٍ لكي تخون قرينَتَها أو تتخلَّى عنها وأنَّنا كبلادٍ تَرْفُلُ في التَّخَلُّفِ العقليّ والقلبيّ لم تستطعْ عقولُنا أن تستوعبَ هذا الأمرَ على حقيقتِهِ فحاربناهُمْ ظُلْماً وأهدرنا حقوقَهُم كاملةً
صدمتْهَا الحقيقةُ التي وَقَفَتْ أمامَهَا وَجْهاً لوجهٍ ، بينما تُلَمْلِمُ أجزاءَها كقطعٍ بازل متناثرةً !!
وَفَهِمَتْ ...
استوعَبَتْ تماماً أنَّ هذه المرأةَ ما كانت لتحيا دون «كرستين»وكان لابد «لكرستين أنْ تدخلَ البلدَ وتستقرَّ حياتُها فيها فكانت صفقةُ زواجِهِ بها من أجلِ أنْ يُدْخِلَهَا البلادَ ،وتبقى وتأخذَ الجنسيةَ ، جنسيةَ إحدى البلادِ المُتَخَلِّفَةِ..!
راحتْ تتأمَّلُ الصُّوَرَ وتقرأُ تواريخَ التقاطها فوجدتها وكأنما احتفالاً بين المرأتين بعقدِ قرانِهِمَا ..
صُوَرٌ كثيرةٌ جَمَعَتْ المرأتينِ عندَ الأهراماتِ، وعلى حافَّةِ النِّيلِ وداخل معبد (أبي سنبل) وعند قلعة (المقطَّم) !!

وسطعَ وجهٌ آخر ، وجهُ الحقيقة المختبئُ وراءَ كلّ وَهْمٍ يَحْسَبُهُ الغافلُ حقيقةً، وهمُ المبادئِ التي حين وُضِعَتْ على المَحَكِّ اهتزَّتْ وتَمِلَتْ ورقصتْ على الأمنياتِ المخاتلةِ..

لأيَّامٍ ظلَّتْ تفكِّر وتعيدُ حسابَ حياتِهَا مع زوجِها ونفسِها ومستقبلِها

ومن رَحِمِ المستحيلِ قَرَّرَتْ مواجهةَ زَوْجِهَا رافضةً أنْ تتركَ المَاضِي متدثِّراً بصمتِهِ وببصماته الشائكةِ وجلستْ منتظرةً عودتَهُ من عمله

حين عاد طلب منها أن تُجَهِّزَ مُسْرِعَةً الغذاءَ ، وتُعِدَّ المائدةَ بسرعة ،وتحضِّرَ (الملاعقَ والشَّوَكَ) فلابُدَّ أنْ يأكلَ ثم يعودَ مسرعاً مرةً أخرى إلى الجامعةِ لإلقاءِ محاضَرَتِهِ

رمقتْهُ لا مباليةً ومصرَّةً على نبشِ القبورِ وقائلةً له بتحفزٍ واضحٍ وغضبٍ رافضٍ على وَشْكِ الانفجارِ كبركانٍ ثائرٍ: نحنُ قد تربينا في بلادٍ متخلِّفَةٍ ولابُدَّ لنا أنْ نتغيَّرَ فما رَأْيُكَ لو تقومُ بتحضيرِ الغذاءِ بنفسكَ ولنفسكَ ، وما رَأْيُكَ لو قُمْنَا بالإبلاغِ عن كُلِّ السَّمَاسِرَةِ ..؟؟

سماسرةِ الطعامِ ، وسمسارةِ حقوقِ الإنسانِ ، وسماسرةِ الأراضي التي بِيْعَتْ بوضعِ اليَدِ..!!

ما رأيكَ لَوْ تَمَّ القبضُ عَلَيْهِمْ جميعاً وإيداعُهم السجونَ ..؟؟

ما رأيكَ لو رجعْنَا إلى الطينِ لنأكلَ بعضاً مما تُنْبِتُ الأرضُ،عَلَّنَا نَرى بوضوحٍ حقيقَتَنَا ..!

وما رأيُكَ لو علَّمْنَا أولادَنَا مجابهةَ المُتَيَقِّنِينَ من رضوخِنَا بـ «لا « والواثقينَ من رفضِنَا بـ « نَعَم» بطريقةٍ صريحةٍ وواضحةٍ لا تقبلُ مزايداتٍ أو تأويلٍ ..!

حَـالَةٌ..

كم أنا مزدحِمَةٌ كثيراً بكلِّ هذا الصَّخَبِ الَّذي يعتريني كومضٍ فيُدْخِلُني في صمتٍ مُطْبِقٍ كصمتِ الدُّخَانِ الذي ينبعثُ من احتراقٍ شبهِ مُرَاوِغٍ في أوردةِ الفِكْرَة ، وشرايينِ الخَطْوِ الهائِمِ في شوارعِ بلدتِنَا المتقاطعةِ . أسيرُ بلا هدفٍ ، أمارسُ طقسَ العُبورِ أمامَ النَّاقِلاتِ ، مناوشةً سائقي (الميكروباص) أجُرُّ الخطواتِ اللَّامُبَالِيةِ في اتجاهاتٍ عدَّةٍ لكنَّ قدمَيَّ قادتْني للذِّهابِ إليها كما تَجُرُّ العصا كفيفاً في منتهى الحَيْطَةِ و الحَذَرِ. تذكَّرْتُ ملامحَهَا ،الأسوارَ الَّتي تَحُدُّ مكانَهَا وجسدَهَا البَاذِخَ فانتابني إحساسٌ بأنَّ مجرَّدَ وجودِهَا – على قَيْدِ الوُجُودِ – في حدِّ ذاتِه معجزةٌ كبيرةٌ أحتاجُهَا بشدَّةٍ في هذه اللحظة . زال تردُّدِي فأكملتُ طريقي نحوهَا وقد رميتُ بجسدي في أحدِ (التكاتك) وقد تعمَّقَ داخلي إحساسٌ بأنَّ ذَهابِي إليها يشاركُ في صُنْعِ حالةٍ تشبهُ معجزةً أو أسطورةً مثلَ كلِّ تلكَ الأساطيرِ المطويةِ ،المنسيَّةِ والمُغَرَّرِ بها..!

لم أكنْ قد وصلتُ إلى المكانِ لكنَّهَا بانتْ لي من بعيدٍ حينَ حرَّكْتُ جسدي المثقلَ صوبَ الاتجاهاتِ المتباينَةِ . عندمَا لاح لي جسدُها الفَتِيُّ ، عنفوانُها الباذخُ رُحْتُ أسألُ نفسي : أتعرفينَ يا نَفْسِي – يا تلكَ المجهدةُ باحتمالاتٍ شتَّى - معنى المعجزةِ ، معنى أن يختارَكِ قدرُكِ لتنفيذِ فكرةٍ ما حتَّى ولو بدتْ تلك الفكرةُ بسيطةً للغايةِ وملتصقةً بذؤاباتِ التَّوَجُّسِ ؟ أنزلْني (التوكتك) المترنّح كمخمورٍ فجأةً ولم يمهلْني فرصةً للتردُّدِ بينما أشارَلِي الصَّبِيُّ القابعُ بداخلِهِ – بيديه ناحيتَهَا : إلى هذه الناحيةِ ستمشينَ قَدَمَاً ... كان طريقُ التُّرابِ الَّذي مَشَيْتُه في أول (أخميم) ساطعاً وبهياً ، بينما عرباتُ الخُضَارِ والفاكهةِ شبهُ العطنةِ تقفُ معطيةً ظهرهَا متجاهلةً تماما لحركةِ الصبيةِ المناوئَةِ .انتهيتُ من - تحت (الكَوْم) بعناءٍ وقد تعفَّرَتْ ثيابي وكدتُ أن أتوهُ وسَطَ بقايا حوائطَ طينيةٍ آيلةٍ للسقوطِ ولم أُفِقْ إلا وقد سقطتْ مني الكوفيةُ التي كنتُ قد خلعتُها من حول رقبتي ، ورحتُ أمسكها بيدي تلفتُ قائلةً : لا يهمُ ما سقطَ وفقدتُهُ ، فما ضاعَ منّي لن أسمحَ له بأنْ يُضَيّعَ بهجةَ لقائي بها ..! ووصلتُ عندها فتوقَّفْتُ أمامَهَا ، ارتبكتُ كثيراً حين تلاقَتْ نظراتُنَا ، رحتُ أتأمَّل هذا الجمالَ الأخَّاذَ ،الفتنةَ الملتبسةَ ، والغوايةَ المُندسَّة .تملكني إحساسٌ جارفٌ بأنَّني في محرابِ عِبَادَةٍ ،عاريةٌ كعاهرةٍ، صوفيةٌ في مَقَامِ الإحسانِ ، مُتَبَتِّلَةٌ كتائبةٍ

من ذنبٍ كلّ من مرُّوا وأوقدوا في روحي حرائقَهَم ثمَّ مضوا غيرَ مكترثِينَ بقطعِ الرَّمَادِ المُتَنَاثِرِ. رحتُ أنظرُ إليها صامتةً .أتوهُ متوحِّدَةً في شاسعِ الفراغِ حولَهَا ، فيستنطقُنِي إحساسٌ مباغِتٌ بأنَّني كنتُ هنا مِن قَبْلُ ، كَبِرْتُ وتَرَعْرَعْتُ ، عشقتُ وبكيتُ ، قَتَلْتُ وَقُتِلْتُ ، جربتُ وتوقفتُ ، لكنَّ قَدَراً قد ناوشَنِي بالنسيانِ ثم راح يختارُ لي شيئاً بسيطاً وخارقاً عَلّي أنْ أعودَ لأُتِمَّهُ على وجهِهِ الأوحدِ. كانتْ تقفُ وسَط قدسِهَا ، تأمرُ فُتطَاعُ ، تشيرِ فيَحْنُونَ رؤوسَهم بالموافقة أشارتْ لي بيدَيْها، فجفلْتُ وارتبكتُ وتلعثَمْتُ لكنّي- رغمَ ارتباكي - اقتربتُ فراحتْ ضاحكةً تقربُني من مجلِسِهَا و تحكي لي عن المَلِكِ الأَبِ» رمسيس « والملكةِ الأم
« نفرتاري» تلك المترفةُ الباذخةُ الميّتَة..!
راحت تروي باستفاضةٍ كيف ساقَتْها الأقدارُ لتتزوجَ من المَلك فقط لتحافظَ على المُلْكِ وتصبح هي الزوجةَ الملكةَ وكاهنةً لـ (حتحور) !!
استبقْتُهَا وسألتُها متصنعةً الغباءَ والمراوغةَ : لكنّي لا أملك مُلْكاً لأحاربَ لأجلِه ؟؟ كل ما أملكُهُ مملكةٌ مِن وهمٍ لا يَحُدُّ حدودَها أبٌ ولا أخٌ ولا رفيقٌ ، كما أنَّني تائهةٌ بحقٍّ لا أستطيعُ أنْ أُصْبِحَ كاهنةً للربَّة (حتحور) ، ولا مقيمةَ الشعائرِ لها..!
لكنَّها أشارتْ لي بيدَيْهَا الملكيَّةِ : صَهٍ صَهٍ لا تُكْثِرِي من الحديثِ.. ؟؟ :ابحثي عن معجزتِكِ ، وأمسكي بتلافيفِهَا ، ثمَّ اطلُبِي الرِّضَا من (حتحور)... ولذتُ بـ(حتحورَ) ..!
وجَّهْتُ وجهيَ صَوْبَهَا ، رحتُ أُطِيلُ النَّظَرَ للرِّدَاءِ الأَحْمَرِ وغطاءِ الرَّأْسِ مِنْ قُرْصِ الشَّمْسِ النَّازِفَةِ فبانَ لي مرادُهَا ،أمّا هي فقد عَجَنَتْ لي معجزتي من طحينِ المألوفِ وخميرةِ الذِّكْرَى ... مِن المُكْتَمِلِ بالغيابِ ومِن الحاضرِ- كوهمٍ مُخَاتِلٍ ومتثائب..
. وحلَّتْ (حتحور)في جسدي فباعدَتْ ما بيني وبيني .. وما بين ألمي ومُنتهى ألمي ، باعدَتْ ما بين ذراعَيَّ ، ما بين ساقَيَّ ، ما بين عينَيَّ ، وما بين قلبي ثم كوَّنتْني شجرةً ترسل الفَيْءَ والظلالَ فكنتُ أستحلبُ الماءَ من ثديي وأعطيهِ للظامئين الجالسينَ عند أعطافِها . ومرَّتْ بُرْهَةٌ أفقتُ بعدها على صوتِ (إيزيس) المسكينِ الجائعِ يصرخُ باكياً ،منادياً ،مهدِّداً ،ممسكاً باللَّوح المُمَزَّقِ عند أطرافِه ومستجدياً العابرينَ.. !!
عندئذٍ انكشفَ المكتوبُ ، بانتْ لي لُجُّتي ، فَرُحْتُ أعدو هَلِعَةً فَزِعَةً وسَط الجموعِ المتهافتةِ ، أشقُّ لنفسي طريقاً للعودةِ وسَطَ الوجوهِ الجائعةِ الكالحةِ ، ومَواقِدُ النَّارِ المُغْرِقَة وأمُدُّ يَدِيَ - وسَط الزحامِ وعند واجهاتِ المقابرِ ووسَط النِّسوةِ اللَّاتي يتصايَحْنَ بلوعةٍ - ألتقطُ (حورس) اليتيمَ أُخْرِجُ لَهُ ثديي لأُسْقِيَه ، أفتحُ له

رُوحي لتُؤْوِيَهُ . وأُهَدْهِدَهُ حتَّى يَكْبَرَ وأصطَبِرُ حتَّى يعودَ ليبحثَ لي عن كلّ ما فقدتُه (وشاحيَ ،الكوفيَّةَ ،العباءةَ ،النظَّارةَ) ربَّمَا يسترُ بها ما ظَهَرَ لهم من عُرْيي، ويأتيني ببعض ماءٍ أَرْوِي بِه معجزةَ الظَّمَأ المُمْتَدَّةَ بحتميَّةِ أفقٍ بلا نهايةٍ فلربَّما أتمكَّنُ أنْ أعودَ من حيث كنتُ ...!

حَافَةٌ...

أخذني ومضى بي إلى هناكَ بخطاهُ المتوسِّلةِ ونبضاتِ قلبِه الوَجِلَةِ يتلفتُ بارتباكٍ ويُسارعُ الخَطوَ كَي لا يرانا أحدٌ يمنّي نفسَه بلحظةٍ يسرقُها من عمر الزَّمنِ نصبحُ فيها عرايا ونتَّحدُ بالكون كانتْ الشَّمسُ على استحياءٍ تدق بابَ الأفق ، والهواءُ ينسابُ هادئاً مسالماً لا يعكِّر صفوَه أحدٌ يتحسسني كلَّ مسافةٍ ليتأكدَ أنَّني معَهُ لم أبرحْ مكانَ الاختباءِ ويمعنُ في تخيُّل هروبِنا بعيداً عن أعين الرُّقَباءِ فتظللُ وجهَهُ ابتسامةٌ حالمةٌ

عندما وصل إلى حافة البحر تنهَّدَ بارتياحٍ وظلَّ يتأملُ المكانَ حولَه ويتخيَّرُ لنفسه مكاناً يثبّتُ قدمَيه فيه كانتْ قدماه ثابتتَيْنِ عند النقطةِ التي اختاراها بعدما أمعنَ في التفكيرِ كثيراً واستراحَ لاختيارِه.

وأصبحَ واقفاً عند نقطةِ الالتقاءِ حيثُ الأزرقُ الشَّفيفُ يأتي ليسكبَ زُرْقَتَه على تلك الحصى والقواقعِ وأخضرِ الطَّحَالِبِ المتمازج ببعضِ مياهٍ ساكنةٍ على الأرض.

عندما تيقَّنَ أنَّهُ عند نقطةِ الالتقاءِ تماماً ابتسم لنفسِهِ فَرِحاً تيَّاهاً وتيقَّنَ أنَّهُ سيخوضُ معركَتَهُ منتصراً بلا أدنى شكٍّ..

كلُّ الأشياءِ : المدى والحصى، استكانتي ونزقَه ، تمردَه وصمتي ، ابتسامتَه واستفهاماتي ، نظرةَ عينَيْهِ وجسدي...قد انسجمتْ جميعاً في لحظةٍ واحدةٍ وأصبحنَا كلُّنا توتراً ناعماً متناغماً حدَّ البوحِ والألمِ .

عندئذٍ أخرجَني من مكاني ونزعَ عنّي كلَّ أوراقِ (السلوفان) التي تغطيني وتحجبُني عن أشعةِ الشَّمسِ وأصبحتُ عاريةً تماماً أرتعشُ إذ رأيتُ هذا المدى المترامي يغريني بنزقِ الدخولِ فيه نحو العمقِ دون لحظةِ تردُّدٍ واحدةٍ تعيدني إلى الوراء ولو قليلاً وتركني لأسبحَ بعيداً بعيداً كانت عيناهُ مثبتتَيْنِ عليَّ لكنَّه أبداً لم يحاولْ أن يحميني من قوةٍ لا علمَ ولا تجربةَ لي بها.

تركني لمكرِ الهواء ولسعةِ الموج وجبروتِ الشمسِ الآتيةِ تجرفني للبعيد.

ويأخذني البعيدُ :: يأخذني دون لحظةِ تفكيرٍ أو تردُّدٍ وأنا لم تكن لديَّ تجربةٌ عن احتواء المدِّ وجبورتِه الصَّامتِ فاستسلمتُ دون مقاومةٍ...

ويجرجرني المدُّ وينسكبُ فيَّ وأتلاشى في ضياءٍ وعتمةٍ ، مقاوَمةٍ وتساؤلٍ ، انهزامٍ ولذةٍ ، وأبدأُ في الخَفق إذ كنتُ أطمئن أنه بجانبي يبادلني خوفاً بخوفٍ دفءً بدفءٍ

خفقاً بخفقٍ.
وأحرِّكُ نفسي بعيداً أو أتحركُ دونَ وَعْيٍ أو مُنتهى الوعي وكأنَّني موجاتٍ تتسارعُ في مدى ليس له شطٌّ ...!

بالخيط يشدُّني فأعلو: بالخيط يشدُّني فأهبطُ...!

ما لِهذا الرجل يرخي لي الخيطَ على الغاربِ لأعلوَ حدَّ البعاد ولأهبطَ حدَّ الحزنِ والواقعِ..؟؟؟

أتراهُ يتلاعبُ بي أم يلاعبُ المدى بي ..؟

أم يثبِّتُ لنفسِه قدرتَه الواهمةَ على الركضِ صوب البعيدِ حيث المستحيلُ يجلس هناك يرنو إلينا ..!

كنتُ بين سطوةِ المدى وثباتِ قدمَيْهِ على الحصى أتمايلُ أتهدْهَدُ أنتفضُ أرتخي أقتربُ للأمامِ أتراجَعُ للوراءِ أستلقي لاهثةً على جانبٍ متنافرٍ لا يسيطرُ عليه بطرف الخيط .

يغريني هذا المدى البعيدُ بالاقترابِ منهُ يتوسَّل إليَّ ويستحلفُني بالبقاء يواعدني على وفاءٍ لا يعرفُه أحدٌ عند حافَّةِ البحر..!

أما هو فراحَ يشدُّني بعنفٍ وكأنَّني لا أعنيه كثيراً وإنَّما كلُّ ما يعنيه أنْ يُثْبتَ جَدارتَه أمامَ هذا الطوفانِ الهادرِ...

وكأنما معركةٌ بينه وبين المدِّ لم تُحْسَمْ بَعْدُ..!

أنسحبُ من المدى المبعثرِ إلى مدى ضيِّقٍ عند يديه المتشبثَتَيْنِ بي الممسكتين بطرفِ الخيط.

أخذني المدى ..عصفَ بي..أطاحَ بي ..زَلْزَلَني..ثمَّ أهاجَ روحي..هَدْهَدَني..ثم غدرَبي.. سلَبني مقاوَمتي..ثمَّ أسكرني شَربْتُ من زُرْقَتِه فثَمِلْتُ. تملكتني النشوةُ فعطشتُ لما تبقَّى من ألقٍ لمْ أذقْ آخرَ قطرةٍ منهُ.

وحينما تيقَّن بقربِ هزيمته انحازَ لكبريائِه فشدَّ الخيطَ بعنفٍ على حينِ غِرَّةٍ لأعود إليه فاصطدمتُ بالصخرةِ التي هناكَ وانقطعَ الخيطُ من يَدِهِ.

فظلَلْنَا عند الصخرةِ البعيدةِ أنا والمدى كائنَين نتحركُ سويَّاً.

أمَا هُو فقد لَمْلَمَ باقِي الخيطَ وعادَ وحيداً...!

سُكُوْنٌ..

دخلَ «أيوبُ» حجرةَ الدَّرسِ صامتاً ، أطال النظرَ في أعينِ تلاميذِهِ الحائرةِ ، ابتسمَ لهم فازدادَ لغطُهم ، قَطَّبَ جبينَهُ فتبادلوا النظراتِ كثيراً ثم بدأوا يصمُتون تدريجياً ، راح يسترجعُ معهم ما قد ذكرَهُ لهم في حصةِ الدَّرْسِ الماضيةِ عن الفتحةِ ، والضَّمَّةِ ، والكَسرةِ

شدَّدَ عليهم وصيتَه بتذكُّرِ كلامِ (ابنِ مالكٍ) وراحَ يُرتِّدُ.....

فارفَعْ بِضَمّ وَانْصِبَنْ فَتْحاً وَجُرّ*** كَسْراً كَذِكْرُاللهِ عَبْدَهُ يَسُر

وَاجْزِمْ بِتَسْكِينٍ وَغَيْرُ مَا ذُكِرْ *** يَنُوبُ نَحْوُ جَا أَخُو بَنِي نَمِرْ

وحين وصلَ إلى السكونِ كانوا قد تململوا جميعاً فقد كانوا يريدونَ الانتهاءَ من الدَّرسِ سريعاً للذهابَ إلى «خبازسوق الحلوى «حيث سيقفون هناك يشترون الخبزَ بينما تأخذُهم الرائحةُ وأشكالُ النارِ وتسافرُ بزقِهِمْ ليعرجوا عند «بيَّاع الخلال الأخضر» ليشاكسوه ويلملموا معه ما قد تناثرَ على الأرض واختلطَ بالتراب ثم يختبئون وسَط «السُّوقِ» عن أعين الباحثين عنهم ..

ابتسمتْ عيناه ثم أمسك بالطبشور ، بخطٍ مائلٍ قسَّم السُّبورةَ نصفَيْنِ ثمَّ قال لهم بحزمٍ وهو يشيرُ بيدَيه : هنا البحرُ وهنا ينتهي البحرُ ، هنا الشط وهنا ينتهي الشط ،وما بينهما سكونٌ

تبادلوا النظراتِ فيما بينهم ثم فجأةً علَتْ ضحكاتُهم وازداد ضجيجُهمْ..!

جاءوا جميعا إلى نصف السُّبورة ،راحوا يرسمونَ عصافيرَ كثيرةٍ بأجنحةٍ مرفرفةٍ وريشٍ ملونٍ ثم ناوشوا العصافيرَ ومدُّوا لها أيديَهم بالحَبِّ لتأكلَ فأكلتْ وابتهجتْ وتراقصتْ ، ثم راحتْ تعبُرُ خطَّ السكونِ وتحلّقُ في الأفُقِ لتصنعَ مع مدى البحرِ علاماتِ الألقِ والجنونِ . انصرفَ عنهم صامتاً وذهبَ إلى

«خُلْوَةِ المَسْجِدِ» وعند أحد حوائطِهَا أسندَ جسَدَهُ المتعبَ ثمَّ أطرقَ للبعيدِ .....

مهداة إلى...

الفنان التشكيلي / أيوب حسين

(السيرة ذاتية)

الاسم / وفاء هاشم مصطفي محمود الحكيم
اسم الشهرة/ وفاء الحكيم
العمل/ طبية بشري . أطفال وحميات
الجنسية/ مصرية
الديانة/ مسلمة
العنوان ج م ع سوهاج – ١٥ ش فؤاد ادم امتداد شارع الجمهورية
البريد الالكتروني wafaa_elhakeem@hotmail.com
عضو اتحاد كتاب مصر فرع القصة رقم العضوية ٣٦٤٧
عضو عامل في قصر ثقافة سوهاج
صدرت لها ٣ مجموعات قصصية
. قطرة عالقة – دار الأدهم للنشر ٢٠١٣
. صهيل العطش – دار اقرأ ٢٠١٤
. همس النوافذ المغلقة دار اقرأ ٢٠١٥
. تقاطع دار ماستر للنشر والتوزيع ٢٠١٩
قيد النشر مجموعة (شغل حريم)
نشرت القصة القصيرة في العديد من المجلات والجرائد اليومية مثل مجلة القصة – المساء – أخبار الأدب – الأخبار. الثقافة الجديدة وغيرها ,,,,,,

المحتوى

الإهداء ٣

تقاطع ٥
انتحار ٦
خفوت ٨
زجاج ٩
طريق ١١
شارة ١٣
قتل ١٥
عودة ١٨
تعاطف ٢٠
فحيح ٢٣
اجتياح ٢٥
نظرة ٢٨
جارونيا ٣٢
احتشاد ٣٥
كراميل ٤٠
تشابك ٤٣
رفض ٤٦
الحفل ٥٠
عطش ٥٣
وخز ٥٧
فرار ٥٩
صورة ٦٢
حالة ٦٦
حافة ٦٩
سكون ٧١

ماســـتر ©